جورج بيريك

فصائل الفضاءات

ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي





فصائل الفضاءات

العنوان الأصلي للكتاب :

George Perec

Espèces d'espaces

Galilée, 1974

Publié avec le concours du service de coopération et de l'action culturelle de l'ambassade de France au Maroc

جورج پيريك

فصائل الفضاءات

ترجمة

عبد الكبير الشّرقاوي

دار توبقال للنشر

عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار - الدار البيضاء

بلفدير، الدار البيضاء 05 — المغرب

الهاتف / الفاكس

تم نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة
معالم

الطبعة الأولى، 2000

الإيداع القانوني رقم : 2000/1462
ردمك 6 - 87 - 880 - 9981

تنبيه من المترجم

نصّ جورج پيريك مستقلّ بفضاء كتابته، وبهندسة طباعته، ولذلك امتنعنا عن إضافة الهوامش، وأتبعنا التّرجمة بملحق يضم معجماً موجزاً، وتذييلاً خاصاً بهذه الترجمة للأستاذ جان-لوك جولي قمنا بنقله الى العربية.

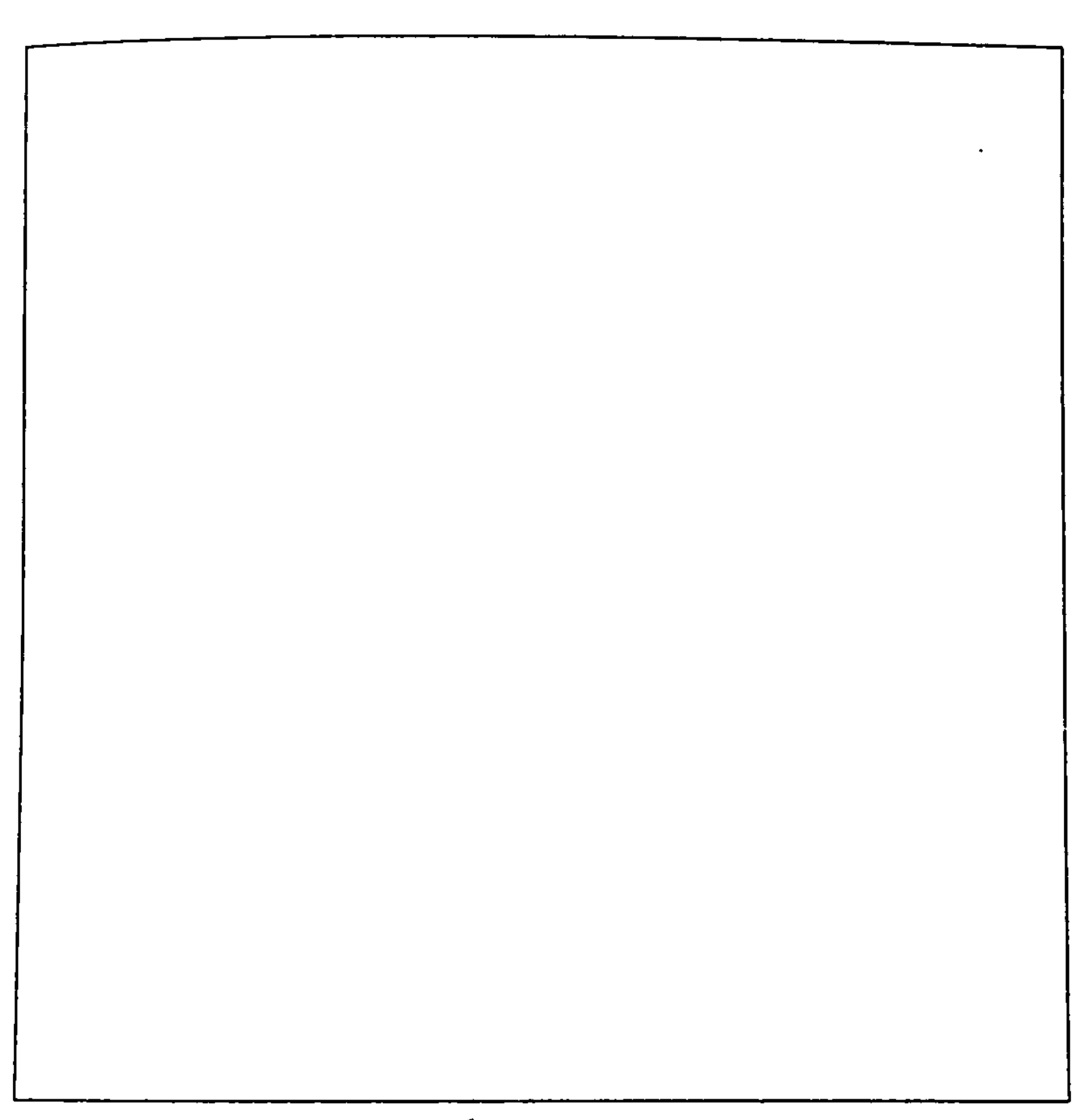
ومن الواجب أنْ نشكر الأستاذ جان-لوك جولي Jean-Luc Joly الذي استفادت هذه التّرجمة من علمه العميق وإحاطته الواسعة بأدب جورج پيريك وسيرته الفكريّة والأدبيّة، ولعنايته، رغم حاجز اللّغة، بمصير هذه التّرجمة.

رموز :

الكلمات الواردة بين معقوفين [ ] هي إضافة من المترجم يقتضيها السّياق.

الحروف التّالية تقابل حروفاً غير موجودة في العربية :

پ = p ؛ گ = g ؛ ڤ = v .



شكل 1. خريطة الأقيانـوس
(مقتطفة من لويس كارولّ، البحث عن سنارْكْ)

فضاء

فضاء حرّ

فضاء مغلق

فضاء منبوذ

نقصٌ في الـ فضاء

فضاء محسوب

فضاء أخضر

فضاء حيوي

فضاء حرِج

موقع في الـ فضاء

فضاء مكشوف

اكتشاف الـ فضاء

فضاء مائل

فضاء بكْر

فضاء إقليدي

فضاء جوي

فضاء رمادي

فضاء معوج

فضاء الحُلم

فاصل فضاء

جولة في الـ فضاء

هندسة في الـ فضاء

نظرة تمسح الـ فضاء

فضاء زمان

فضاء مقيس

غزو الـ فضاء

فضاء ميّت

فضاء لحظة

فضاء سماوي

فضاء خيالي

فضاء مضر

فضاء أبيض

فضاء الداخل

الماشي في الـ فضاء

فضاء مكسور

فضاء منتظم

فضاء معيش

فضاء رخو

فضاء جاهز

فضاء مسلوك

فضاء سطح

فضاء نمط

فضاء محيط

طواف الـ فضاء

على ضفاف الـ فضاء

فضاء صباح

نظرة تائهة في الـ فضاء

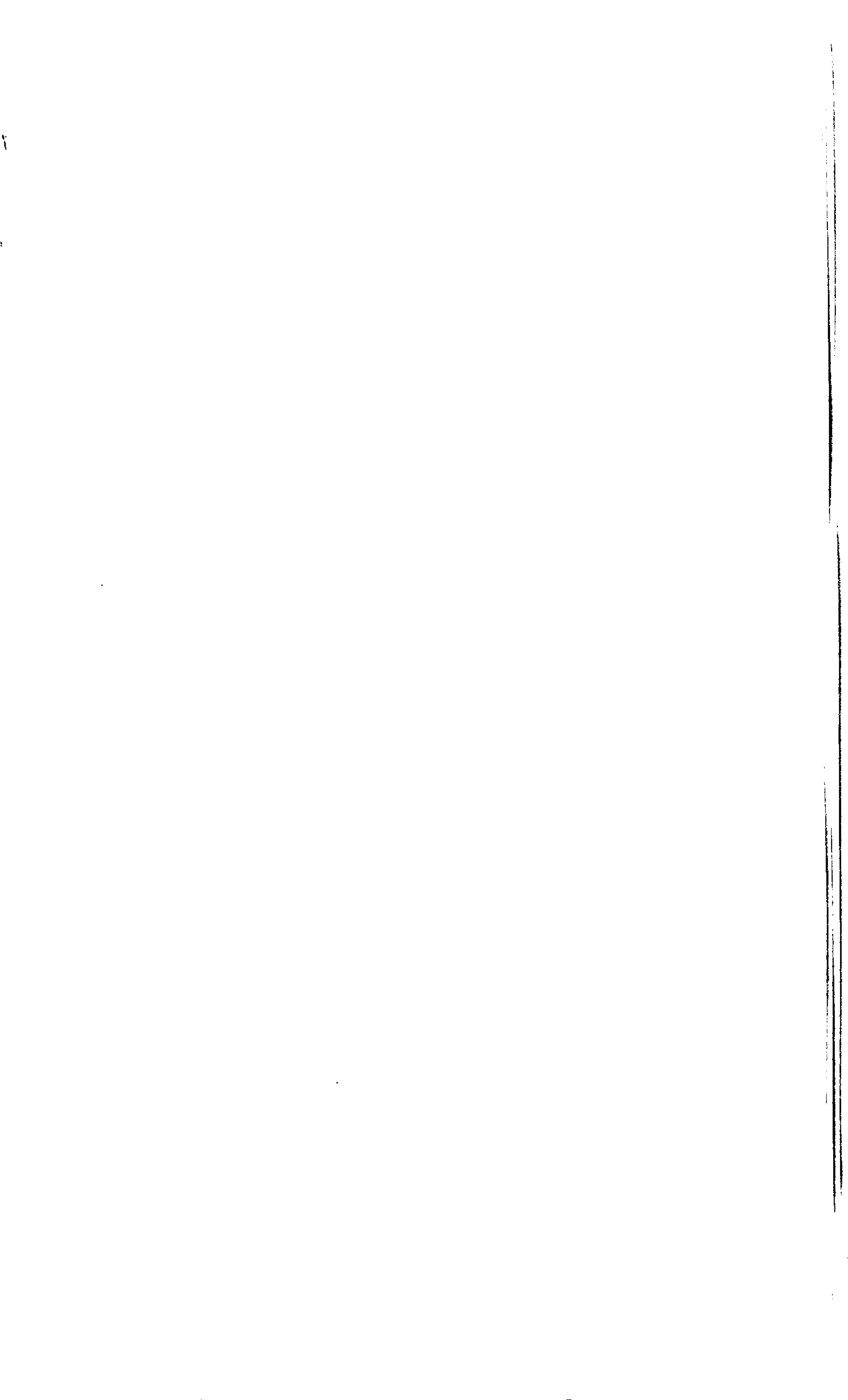
الـ فضاءات الفسيحة

تطوّر الـ فضاءات

فضاء صوتي

فضاء أدبي

أوديسا الـ فضاء



تقديم

موضوع هذا الكتاب ليس تحديداً الخلاء، إنّه سيكون بالأحرى ما حوله، أو فيه (انظر شكل 1). إذْ في المنطلق لا يوجد شيء كثير: شيءٌ من اللاّشيء، من اللاّيُجَسّ، من اللاّماديّ بالفعل ؛ من الامتداد، من الخارج، من ذاك الذي هو خارجٌ عنّا، ذاك الذي نتحرّك داخله، الوسط المُكْتَنِف، الفضاء المحيط.

الفضاء. ليس تماماً الفضاءات اللاّنهائية، تلك التي يُفْضِي صمتُها، لفرط ما يطول، إلى إثارة شيء أشبه بالخوف، ولا حتّى الفضاءات، المُرَوَّضَة تقريباً الآن، بين الكواكب، أو بين النّجوم أو بين المجرّات، وإنّما فضاءاتٌ أقرب بكثير، مبدئياً على الأقلّ : المدن مثلاً، أو الأرياف أو دهاليز المترو، أو حديقة عامّة.

إنّنا نحيا في الفضاء، في هذه الفضاءات، في هذه المدن، في هذه الأرياف، في هذه الدّهاليز، في هذه الحدائق. يبدو لنا هذا بديهياً. ربّما كان ينبغي لهذا أنْ يكون بالفعل بديهياً. لكن هذا ليس بديهياً، ليس واضحاً بذاته. هذا واقعيٌّ، طبعاً، ونتيجة لذلك، فهو على الأرجح عقلانيٌّ. يُمْكِنُ أنْ يُلْمَسَ. بل يمكن الاستسلام للحلم. لا شيء، مثلاً، يمنعنا من تَصَوُّر أشياء لن تكون لا مدناً ولا أريافاً (ولا ضواحي)، أو دهاليز مترو تكون في الآن ذاته حدائق. لا شيء يمنعنا كذلك من تَخَيُّل مترو بين الحقول (كنت قد شاهدت إشهاراً حول هذا الموضوع لكن ـ كيف أقول؟ ـ كان ذلك حقلاً إشهارياً). والأكيد، على أيّ حال، أنّه في حقبة لاشكّ أنّ إيغالها في القدم يمنع من الاحتفاظ عنها بأدنى ذكرى واضحة، لم يكن شيءٌ من كلّ هذا : لا دهاليز، ولا حدائق، ولا مدن، ولا أرياف. والمشكلة ليست في معرفة كيف بلغت الأمور إلى هذا الوضع، بل ببساطة الاعتراف بهذا الوضع، وأنّ الأمور هكذا : لا يوجد فضاءٌ، فضاءٌ جميل، فضاءٌ جميل محيطٌ، فضاءٌ جميل مِنْ حَوْلِنا، بل يوجد حَشْدٌ من قِطَعٍ صغيرة من الفضاء، وإحدى هذه القطع هي دهليز مترو، وأخرى من هذه القطع هي حديقة عامّة، وأخرى (وهنا، على الفور، ندخل إلى فضاءات أكثر تخصيصاً)، من حجم متواضع في الأصل، قد بلغت أحجاماً عملاقة وصارت باريس، في حين أنّ فضاءً مجاوراً، لم يكن بالضّرورة أقلّ موهبة في المنطلق، قد اكتفى بأنْ يظلّ [مقاطعة] پُونْتوَاز. وآخر أيضاً، أكبر حجماً بكثير، مُسَدَّسَ الأضلاع بشكلٍ مبهَم، قد أُحيط بخطٍّ مُنَقَّط غليظ (أحداثٌ لا

تُحصَى، بعضـها بالغ الخطورة، قد كان سببها الوحيـد، رَسْمُ هذا الخطّ المنقّط) وتَقَرّرَ أنّ كلّ ما يوجد داخل هذا الخطّ سَيُلَوّنُ بالبنفسجي وسيُسمّى فرنسا، في حين أنّ كلّ ما يوجد خارج الخطّ سيُلوَّن بشكلٍ مختلف (لكن خارج ذلك المسدّس الأضلاع المذكور، لا أحد كان يرغب على الإطلاق في أنْ يُلَوَّنَ على نمطٍ واحد : هذه القطعة من الفضاء كانت تريد لونها، وأخرى كانت تريد لوناً آخر، ومن ثَمَّ المسألة الطوبولوجية المشهورة عن الألوان الأربعة، والتي لم تُحَلَّ إلى اليوم) وسيُسمّى باسم مغاير (والواقع أنّه طوال عددٍ لا بأس به من السّنين، قد جرى الإلحاح كثيراً على أنْ تُلَوّنَ بالبنفسجي ـ وفي الوقت نفسه تُسَمّى باسم فرنسا ـ قِطَعٌ من الفضاء لم تكن تنتسب إلى المسدّس الأضلاع المذكور، بل غالباً ما كانت نائية جداً عنه، لكن هذا، على العموم لم يصمد طويلاً).

باختصار، تكاثرت الفضاءات، وتجزّأت وتنوّعت. توجد اليوم من كلّ الأحجام وكلّ الأنواع، لكلّ الاستعمالات ولكلّ الوظائف. أنْ تحيا، هو أنْ تَعْبُرَ من فضاء إلى آخر، محاولاً أقصى ما يمكن أنْ لاتتعثّر.

أو، إذا شئنا :

الفصل الأوّل

صوت (من خارج الخشبة) : في الشّمال، لا شيء. في الجنوب، لا شيء. في الشّرق لا شيء.

في الغرب، لا شيء.

في الوسط، لا شيء.

ينزل السّتار. نهاية الفصل الأوّل.

الفصل الثاني

صوت (من خارج الخشبة) : في الشّمال، لا شيء. في الجنوب، لا شيء. في الشّرق، لا شيء.

في الغرب، لا شيء.

في الوسط، خيمة.

ينزل السّتار. نهاية الفصل الثّاني.

الفصل الثالث والأخير

صوت (من خارج الخشبة) : في الشّمال، لا شيء. في الجنوب، لا شيء. في الشّرق، لا شيء.

في الغرب، لا شيء.

في الوسط، خيمة.

و،

أمام الخيمة،

جنديٌّ وَصيفٌ يُلَمِّعُ زوجاً من الأحذية

بِدهان التّلميع «الأسد الأسود»!

ينزل السّتار.

نهاية الفصل الثّالث والأخير.

(مؤلّف مجهول. نصٌّ حفظته حوالي 1947، وتذكّرته في 1973).

أو، أيضاً :

في باريس، يوجد دربٌ ؛
في هذا الدّرب، يوجد بيت ؛
في هذا البيت، يوجد سُلّم ؛
في هذا السلّم، توجد غرفة ؛
في هذه الغرفة، توجد مائدة ؛
على هذه المائدة، يوجد بساطٌ ؛
على هذا البساط، يوجد قفص ؛
في هذا القفص، يوجد عُشٌّ ؛
في هذا العشّ، توجد بيضة ؛
في هذه البيضة، يوجد عصفور.

العصفور أسْقَطَ البيضة ؛
البيضة أسقطت العشّ ؛
العشّ أسقط القفص ؛
القفص أسقط البساط ؛
البساط أسقط المائدة ؛
المائدة أسقطت الغرفة ؛
الغرفة أسقطت السلّم ؛
السلّم أسقط البيت ؛
البيت أسقط الدّرب ؛
الدّرب أسقط مدينة باريس.

أغنية أطفال من دو – سيڤر
(پول إيلوار، الشّعر العفوي والشّعر القصدي)

الصفحة

أكتبُ لأتصفّح ذاتي
هنري ميشو

1

أكتبُ...

أكتبُ : أكتبُ...
أكتبُ : «أكتبُ...»
أكتبُ أنّني أكتبُ...
الخ.

أكتبُ : أرْسُمُ كلمات على صفحة.
حرفاً حرفاً، يتشكّل نصٌّ، يتأكّد، يترسّخ، يَتَثَبَّتُ، يتجمّد :
بدقّةٍ تقريبيةٍ سَطْرٌ أُ
فُ
قِ
يٌّ
يتنزّل على الورقة البيضاء، يُسَوِّدُ الفضاء البِكْر، يمنحه معنىً، يجعل له

اتّجاهاً :
من اليمين
إلى اليسار

م
ن

أ

ع
ل
ى

إ
ل
ى

أ
س
ف
ل

من قَبْلُ، ما كان يوجد شيء، أو تقريباً لا شيء ؛ من بعد، ليس ثمّة شيء كثير، بعض العلامات، لكنّها كافية لكي يوجد أعلى وأسفل، وبداية ونهاية، ويمين ويسار، ووجه وظهر.

2

إنّ فضاء ورقة (النّموذج الرّسمي الدّولي، المستعمل في الإدارات، والذي يُباع في كلّ الوراقات) يبلغ مقاسه 623,7 سم2 ، وتلزم كتابة ما ينيف عن ستّ عشرة صفحة من أجل شغل متر مربّع. وبافتراض أنّ الحجم المتوسّط لكتاب هو 29,7x21سم، فمن الممكن، بسلخ كلّ المؤلّفات المطبوعة المحفوظة في المكتبة الوطنيّة [بباريس] وبَسْطِ دقيق للصّفحات الواحدة إلى جنب الأخرى، تغطية كاملة، إمّا لجزيرة سانت-هيلين، وإمّا لبحيرة تراسيمين.

يمكن أيضاً حساب عدد هكتارات الغابات التي كان يلزم قطعها لإنتاج الورق الضّروري لطبع أعمال ألكسندر ديماس (الأب)، الذي، كما نذكر، بنى لنفسه بُرْجاً كلُّ حجر فيه كان يحمل، منقوشاً، عنوان أحد كتبه.

3

أكتبُ : أسْكُنُ وَرَقَتِي، أغْشَاها، أتصفّحها.

أوجِدُ بياضات، فضاءات (طفرات في المعنى : انقطاعات، مَعَابِر، انتقالات).

أكتبُ

في

الهامش

أرجعُ إلى السّطر.

أحيلُ على هامش أسفل الصّفحة (1)

أَستبدل الورقة.

4

قليلةٌ هي الأحداث التي لا تترك على الأقلّ أثراً مكتوباً. كلّ شيء تقريباً، في لحظة أو أخرى، يمرّ بورقة، أو صفحة مذكّرة، أو وريقة مفكّرة، أو أيّ حامل مرتَجَلٍ آخر (تذكرة مترو، هامش صحيفة، علبة سجائر، ظهر غلاف رسالة، الخ.) ترتسم عليه، بسرعة متغيّرة وتقنيات مختلفة تبعاً للمكان، أو السّاعة أو المزاج، هذه أو تلك من العناصر التي تُكَوِّنُ مألوف الحياة : هذا يبدأ بالنّسبة لي (لكنّني دون شكّ مثالٌ مبالَغٌ في اختياره، لأنّ أحد نشاطاتي الرّئيسية هو تحديداً الكتابة)، من عنوانٍ ملتَقَطٍ على الطّاير، أو موعدٍ مُدَوَّن في استعجال، أو كتابة شيك، أو غلاف أو علبة، حتّى التّحرير الشّاق لرسالة إدارية، أو تعبئة مُملّة لاستمارة (تصريح ضريبي، ورقة العلاجات، طلب الاقتطاع الآلي لفاتورات الغاز والكهرباء، تعاقد، عقد إيجار، ملحق وثيقة، إيصال، إلخ.) حتّى قائمة المشتريات المستعجلة جداً (قهوة، سكّر، نشارة لقط، كتاب [الباحث السّوسيولوجي] بودريار، مصباح كهربائي 75 وات، بطاريات، ملابس داخلية، إلخ.)، من الحَلّ الصّعب أحياناً للكلمات المتقاطعة لروبير سيبيون، حتّى نقل نصّ تمّ أخيراً تبييضه، من نقاط ملتقطة من محاضرة مّا حتّى الخربشة الآنية لشيء قد يصلح (جِناس لكلمات، انبِجَاسٌ لكلمات، جناس حروف، أوما يُسمّى عموماً « فكرة»)،

1) أحبّ كثيراً الإحالات أسفل الصّفحة، حتّى لولم يكن لديّ شيء خاصّ أوضحه فيها.

لـ«عـمـل» أدبيّ (أن تكتب، نـعم، أنْ تجلس إلى الـطّاولة وتكتـب، أن تواجـه الآلة الكاتبـة وتكتب، أنْ تكتب طوال يوم كامل، أو طوال ليلة كاملة، تخطّط تصميماً، تضع نقاطاً كبيرة أو صغيرة على الحروف، أن تكتب مسوّدات أولية، أن تضع كلمة بجنب أخرى، أن تبحث في معجم، أن تنتسخ، أن تراجع، أن تشطّب، أن تحذف، أن تعيد الكتابة، أن تُرَتّب، أن تعثر، أن تنتظر أنْ تجود القـريحة، أن تحاول أن تنتزع من شيء سيكون له دائماً مظهر خربشة مائعة شيئاً يشبـه نصّاً، أنْ تنجح، أن تخفق، أن تبتسم (أحياناً)، إلخ) لعمـلٍ محْضٍ (أولي، معيشي) : أن تضع علامة، في مجلّة تُورِدُ، في مجال علوم الحياة (life sciences)، فهرسَ كلّ المجلاّت الأخرى تقريباً، على العناوين الممكن أنْ تهمّ البـاحثين الذين من المفروض أنْ أُؤَمِّنَ لهم التّوثيق البيبليوغرافي، أنْ تحرّر جذاذات، أن تجمع إحالات مرجعيّة، أنْ تصحّح تجارب طباعيّة، إلخ.

إلى آخره.

5

يبدأ الفضاء هكذا، فـقط بكلمات، بعلامات مرسومة على الصّفـحة البيضاء.

أنْ تَصِفَ الفضاء : أنْ تُسَـمِّيَهُ، أنْ تَخُطَّهُ، مثل صانعي دليل السّواحل الذين يُشْبِعون الشّطآن بأسمـاء المرافئ، وأسمـاء الرّؤوس البحريّة، وأسـماء الخلجان الـصّغيـرة، إلى حدّ أنّ الأرض لا تعود مفصولة عن البحـر إلاّ بشريط مسترسل من النصّ. **والألِـف**، ذلك المكان البورخيسي حيث العالم بأكمله مَرْئِيٌّ في تَوَاقُتٍ، أليس شيئاً آخر سوى أبجديّة؟

فضـاء الإحصاء، فضـاءٌ مُبْتَدَعٌ : يبـدأ الفضاء مع تلك الخـريطة النّموذج التي كانت تمثّل في الطّبعات العتيقة من [معجم] لاروسّ الصّغيـر المصوّر، على مساحة 60 سـم2 حـوالي 65 مصطلحاً جغرافياً، قد اجتـمعت بمعجزة، تجريديةً عن قصد : هذه هي الصّحراء، مع واحـتـها، وواديهـا وشُطّهـا، وهذا هو النّبع والجـدول، والسّـيل، والنّهـر، والقناة، وملتقى النّهرين، والنّهـر العظيم، ومصبّ النّهـر، ومدخله والدّلتا، وهذا هو البـحر وجزره، وأرخبيله، وجُزَيْراته، وشُعَبُه، وصخوره، ومكاسـره، وشريطه السّاحلي، وهذا هو المضيق، والبرزخ وشبه الجزيرة والجَوْنُ الصّغير والمجاز البـحريّ، والخليج والشّرْم، والرّأس والخليج الصّغير، واللّسان، والرّعْن، والبـحيـرة الشّـاطئـيـة، والجُـرْف، هذه هي التّلال، وهـذا هوالشّاطئ، والبِـرَكُ والمستنقعات، وهذه هي البـحيرة، وهذه هي الجبال، والقمّة، ونهر الثّلج، والبـركان، وخاصرة الجبل، والسّفح، والممرّ الجبلـيّ، والشّعْبُ، وهذا هو السّهل، والنّجد، والتلّة، والتلّ، وهذه هي المدينة ومرساها، ومرفأها، ومنارتها...

تمثيلٌ وهميٌّ للفضاء، مجرّد ذريعة لمدوّنة مصطلحات : لا ضرورة حتّى لإغماض العينين كي يتحرّك هذا الفضاء المُستحدَث بالكلمات، فضاء المعجم هذا، فضاء الورق هذا، ويَعْمُرُ، ويمتلئ : قطار بضائع طويل تجرّه قاطرة بخار يجتاز جسراً ؛ زوارق محمّلة بالحصى تشقّ القنوات ؛ قوارب شراعيّة تُناوِرُ على البحيرة ؛ باخرة عابرة المحيط مخفورة بسفن الجَرّ تدخل إلى المرفأ ؛ أطفال يلعبون بالكرة على الشّاطئ ؛ داخل الممرّات الظليلة للواحة، عربيٌّ على رأسه قبّعة عريضة من القشّ يهرول على حماره...

شوارع المدينة حاشدة بالسيّارات. خادمة مُعَمَّمَةُ الرّأس تنفض بساطاً على نافذتها. في حدائق صغيرة في الضّاحية، عشرات من المشتَليّين يُشذّبون أشجار الفاكهة. تجريدة عسكريةٌ تؤدّي تحيّة السّلاح في حين أنّ أحد الرّسميين متزنّراً بوشاح ثلاثي الألوان يُدشّن كاشفاً تمثال جنرال.

توجد أبقار في المروج، وكَرّامُون في الكُروم، وحطّابون في الغابات، وحزمات من المتسلّقين في الجبال. يوجد ساعٍ للبريد على درّاجة يصعد بعناء طريقاً صغيراً متعرّجاً. توجد غسّالات على ضفّة النّهر، ومُرَمِّمُون على جوانب الطّرق، وفلاّحات يطعمن الدّجاج. يوجد أطفال يَخرُجون مثنى إلى ساحة المدرسة. توجد ڤيلاّ على طراز آخر القرن [التّاسع عشر] وحدها فريدة وسط عمارات كبيرة من الزجاج. توجد ستائر صغيرة من [قماش] ڤِيشي، وروّادٌ على أرصفة المقاهي، وقطٌّ يتشمّس، وسيّدة مُثْقَلَة بالرُّزَم تنادي سيّارة أجرة، وحارس يقوم بالحراسة أمام بناية عموميّة. يوجد زبّالون يملؤون شاحنات القمامة، ومُجَصِّصُو واجهات المباني ينصبون سقالة. توجد مُربّيات في الحدائق الصّغيرة، وبائعو الكتب القديمة على طول أرصفة [النّهر]، يوجد طابور أمام المخبزة، يوجد سيّد يُنَزِّه كلبه، وآخر يقرأ صحيفته جالساً على مقعد، وآخر ينظر إلى عمّال يهدمون مجموعة مساكن. يوجد شرطيٌّ ينظّم المرور. توجد طيور على الأشجار، وبَحْريون على النّهر، وصيّادون على حافة الضّفاف. توجد بائعة خردوات ترفع السّتار الحديديّ لحانوتها. يوجد باعة الكستناء، ومنظّفو المجاري، وباعة الصّحف. يوجد ناسٌ يتسوّقون.

قُرّاء مُجِدُّون يقرؤون في المكتبات. الأساتذة يلقون دروسهم. الطّلبة يُدوّنون نقاطاً. الحياسبة يُصَفِّفون أعمدة من الأرقام. متعلّموالحلوانيين يحشون القشدة بالزبدة في صفوف من الكُرَنْبيات. عازفو البيانو يتمرّنون. كُتّابٌ جالسون إلى طاولتهم، مُتأمّلين ومُركّزين، يُصَفِّفون كلمات.

صورة مثالية. فضاء مُطْمَئِنّ.

السّرير

زماناً طويلاً قيّدْتُ نفسي على سرير الكتابة
پـارسيل مروست

1

تُستَعْمَلُ عموماً الصّفحةُ في اتّجاه بُعْدِها الأكبر. والأمر نفسه بالنّسبة للسّرير. إنّ السّرير (أو، إذا شئنا، الصّفحة) فضاءٌ مستطيل، طوله أكبر من عرضه، فيه، أو عليه، ننام عادة في اتّجاه الطّول. ولا نجد سريراً على النّمط «الإيطالي» [أي عرضه أكبر من طوله] إلاّ في الحكايات الخرافيّة (عقلة الإصبع وإخوته، و بنات الغول السّبْع، مثلاً) أو في ظروف غير عاديّة تماماً وعموماً خطيرة (هجرة، عواقب قصف، إلخ.). وحتّى حين يُسْتَعمَلُ السّرير في اتّجاهه الغالب، فإنّ ضرورة نوم أشخاص كثيرين عليه هي دائماً تقريباً علامة على كارثة : إنّ السّرير أداة مُعَدّة لأجل الرّاحة اللّيلية لشخص أو شخصيْن، لا لأكثر.

السّرير إذن هو الفضاء الفرديّ بامتياز، الفضاء المبدئي للجسد (السّرير-الجوهر الفرد)، ذلك الذي يكون حتّى للإنسان الأكثر إرهاقاً بالدّيون الحقّ في الاحتفاظ به : ليس لموظّفي الحجز سلطة حَجْزِ سريرك ؛ هذا يعني أيضاً -و من اليسير التأكّد من ذلك عملياً- أنّه ليس لنا إلاّ سرير واحد، هو سريرنا ؛ وحين توجد أسرّة أخرى في البيت أو في الشقّة، فيقال عنها إنّها أسرّة للضّيوف، أو أسرّة احتياطية. ويبدو أنّ الإنسان لا ينام جيّداً إلاّ في سريره.

2

سرير=جزيرة
ميشيل ليريس

منبطحاً على سريري قرأتُ [رواية الاسكندر ديماس] **عشرون سنة من بعد،** و[رواية جول فيرن] **الجزيرة الغامضة وجيرّي في الجزيرة.** كان السّرير يتحوّل إلى كوخ قنّاصين، أو قارب نجاة على المحيط المهتاج، أو [شجرة] بأوباب يتهدّدها الحريق، خيمة منصوبة في الصّحراء، تجويفة صخور مُؤاتيّة على بعد سنتمترات منها يمرّ أعداء خائبون.

رَحلْتُ كثيراً في أعماق سريري. كنت أحمل معى للبقاء على قيد الحياة قطعاً من السكّر كنت أختلسها من المطبخ و كنت أخفيها تحت وسادتي (كان ذلك يثير الحكّة...). كان الخوف-بل حتّى الرّعب-دائماً حاضراً، رغم حماية الأغطية والمخدّة.

السّرير : موقع التّهديد المُبْهَم، موقع المتضادّات، فضاء الجسد المتوحّد المزحوم بأصناف حريمِهِ السّريعة الزّوال، فضاء الرّغبة المنبوذ، مَوْقِعُ التجذُّرِ اللاّمُحتَمَلُ، فضاء الحلم والحنين الأوديبي :

طوبى لمن ينام دون خوف ولا ندم
في السّرير الأبوي، الثّقيل والجليل
حيث كلّ أهله قد وُلِدوا كما قد ماتوا.

جوزي ماريا دي هيريديا (تذكارات)

3

أحبُّ سريري. أملكه منذ أكثر من عامين بقليل. قبل ذلك، كان في ملك صديقة لي انتقلتْ إلى شقّة قد بلغ من صغرها أنّ سريرها، مع أنّ حجمه طبيعي تماماً، لم يكد ينفذ إلى الحجرة المُعدّة لاستقباله، فاستبدلته في مقابل الذي كان لي آنئذ والذي كان أضيق قليلاً.

(سأكتب يوماً-انظر الفصل اللاّحق-من بين قصص أخرى، قصّة أسرِتّي.)

أحبُّ سريري. أحبّ أنْ أظلّ مستلقياً على سريري وأحدّق في السّقف بنظرة وديعة. كنت سأكرّس لذلك معظم وقتي (صباحاتي على الخصوص) لو لم تعقني عن ذلك

في الأغلب مشاغل تُعْتَبَر أشدّ استعجالاً (سـرد لائحتها سيبعث على السّأم). أحبُّ السُّقُوف، أحبّ زخـارفها النّاتئة و نجـميّـاتها : إنّهـا غالبـاً ما تنوب عن ربّات الإلهـام وتُحيِلُني احتباك التّـزاويق دون عناء نحـو تـلك المتـاهات الأخـرى التي تنسـجـهـا الاسـتيـهـامـات، والأفكار والكلمات. لكن ما عاد أحدٌ يهتمّ بالسّقـوف، إنّها تُصنّع مستويةً تبعث على القنوط، أو أدهى من ذلك، تُكْسَى بزيٍّ غريب من العوارض المزعوم أنّها ناتئة.

لمدّة طويلة، كنـت أستـعـمل لوحـاً عـريضـاً من الخشب بمثـابة طاولة سرير. وباستثناء الطّعام الصّلب (لم أكن على العموم أشعر بالجوع حين أبقى في السّرير)، كان يوجد مجتمعاً كلّ ما كان يلزمني، سواء في مجـال الضّروري أو في مجال التّافه : قنّينة ماء معدني، كأس، مـقصّ أظافر (مـثلوم للأسف)، مجمـوعة كلمـات متقـاطعة للمـذكور روبير سيـبيون (واغتنم الفرصة لأواخذه بمـأخذ صغير : في المربّع 43 من المجموعة المذكـورة، الجيِّد مع ذلك، كتب-ضـمنياً-«néanmoins» بـحرفي «M» اثنين، الشيء الذي، بالطّبع، يُفْسد تماماً العمود الأفـقي المقابل (الذي لا يمـكن التّجـرّؤ على كـتابتـه «asomnoir») ويجـازف عـمليـاً بحلّ المسـألة)، علبـة من المناديل الورقـيـة، فـرشـاة ذات زغـب صلب تتـيح لي أنْ أعطي لِفَرْوِ قطّي (الذي كان في الحـقيقة قطّة) لمعـاناً يستثير إعجاب الجميع، جهاز هاتف، بفـضله أستطيع، ليس فـحسب أنْ أُطْلِع أصدقـائي على أحـوالي الصـحـيّة، بل أنْ أردّ على مـا لا يُحصى من المراسلين بأنّني لستُ شركـة ميشلان، جهـاز راديو يشتغل كلّياً بالتّرانـزستور، يذيع على طول اليـوم، إذا راق لي، فنوناً من الموسيـقى تقطعهـا هسهـسة أخـبار تتـعلّق بعرقـلات المرور، بضع عشرات من الكتب (بعضها كنتُ أنـوي قراءتها ولا أقرؤها، وأخرى كنتُ لا انفكّ عن إعادة قـراءتها)، ألـبومـات قـصصٍ مرسـومـة، أكداس من الجـرائد، عُـدَةٌ تدخين كـاملة، أجنْدَات، ومفكّـرات، ودفاتر وأوراق منفـصلة، ساعـة منبِّهة طـبعاً، أنبـوبة ألكا-سلتـزر (فارغة)، أنـبوبة أخرى للأسبّرين (نصف مملوءة، أو إذا شئنا، نصف فارغة)، أخرى أيضاً للسِّيكينيل (دواء ضدّ الزّكـام : كاملة تقـريباً)، مـصبـاح، بالطّبع، مطبـوعات إشـهارية كـنت أُهمل التخلّص منهـا، رسائل، أقلام الفيتر، أقلام حبر جـافّ (هذه و تلك ناضبة غالباً...)، أقـلام رصاص، منجرة، ممحاة (هذه الموادّ الثّلاث الأخيرة مُعَدّةٌ بالتّحـديد لحلّ الكلمات المتقاطعة المذكـورة)، حصاة ملساء ملتقطة من شاطئ دْيِيب، بعض التذكارات الصّغيرة الأخرى وروزنامة البريد.

4

بعض مُبتَذَلات أخرى :

نقضي أكثر من ثلث عمرنا في سرير.

السّرير هو أحد المواضع النّادرة التي نكون فيها إجمالاً في وضع أفقي. والمواضع الأخرى ذات استعمال أكثر تخصُّصاً : مائدة العمليات الجراحيّة، دكّة السُّونا، كرسيّ الاستراحة، شاطئ، أريكة المُحلّل النّفسي...

تقنيات النّوم : فكرة أنّ الرّقـاد شيء طبيعيّ فكرة غيـر صحيحـة تماماً (مارسيل مُـوسّ، تقنيات الجسد، ضمن [كتاب] السّوسيولوجيا و الأنثروبولوجيا، ص.378 ؛ وكان ينبغي الاستشهاد بكلّ الفقرة-للأسف- الموجزة جداً.)

اقرأ : FLUSSER,V.Du lit,Cause commune2;no5,21-27(1973)

وأرجوحة النّوم [الهاماك]؟ وفراش التّبْن؟ وهياكل الأسرّة؟ والسّرير-الخزانة؟ والأرائك العميقة كالقبـور؟ والسّرير الحقير؟ ومـراقد القطار؟ وأسرّة الميدان؟ وجرَاب النّوم الموضـوع على حشايا مملوءة بالهواء المضغوط الموضوعة هي نفسها على بساط أرضيّ؟

الغرفة

1

شذرات من عمل قيد الإنجاز

أحتفظ بذاكرة ممتازة، بل أعتقد أنّها خارقة، عن كلّ الأماكن التي نمتُ فيها، باستثناء أماكن طفولتي الأولى–حتّى حوالي نهاية الحرب [العالمية الثّانية]–التي تختلط جميعها في الرّتابة اللاّمبالية لمرقد مدرسة إعدادية. أمّا الأماكن الأخرى، فيكفيني فحسب، حين أكون راقداً، أنْ أغمض عينيّ و أن أفكّر بأدنى تركيز في مكان معيّن حتّى تعود إلى ذاكرتي تقريباً على الفور كلّ تفاصيل الغرفة، ومواقع الأبواب و النّوافذ، وترتيب الأثاث، وحتّى أحسّ، بدقّة أكبر، بإحساسٍ جسديٍّ تقريباً أنّني راقدٌ من جديد في تلك الغرفة.

وهكذا :

رُوكْ (كُورنُوَايْ)

صيف 1954

عندما نفتح الباب، يوجد السّرير تقريباً على الفور إلى اليسار. سرير ضيّق جداً، والغرفة أيضاً ضيّقة جداً (بفارق بعض السّنتمترات، عرض السّرير زائد عرض الباب، أي ليس أكثر من متر و نصف) وطولها لم يكن أكبر من عرضها. في امتداد السّرير، توجد خزانة–حافظة ثياب. في مؤخّر الغرفة نافذة مِقْصَلِيّة. على اليمين، طاولة زينة ذات سطح من الرّخام، مع طست و إبريق الماء، لا أظنّ أنّني استعملتهما كثيراً.

أنا متأكّد تقريباً أنّه كانت توجد صورة مؤطّرة على الجدار الأيسر، في مواجهة السّرير : ليس أيّ صورة ملوّنة، لكن ربّما [صورة لوحة] لرينوار أو سيسلي.

كان يوجد مُشَمَّع الأرضيّة على الأرض. لم تكن توجد مائدة ولا فوتيل، لكن ربّما كرسيّ، على الجدار الأيسر : كنتُ ألقي عليه ثيابي قبل أنْ أنام ؛ لا أعتقد إنّني قد جلستُ عليه : لم أكنْ آتي إلى هذه الغرفة إلاّ للنّوم. كانت في الطّابق الثّالث والأخير من البيت، وكان عليّ الانتباه أثناء صعودي السّلالم لّما أرجع متأخّراً لئلاّ أوقظ مُؤَجِّرَتي وأسْرتها.

كنتُ في عطلة، و قد انتهيت من اجتياز الباكلوريا ؛ كنت، مبدئياً، سأسكن في بنسيون كان يضمّ التّلاميذ الفرنسيين الذين يرغب آباؤهم في أنْ يُحَسِّنوا مهارتهم في استعمال اللّغة الأنجليزيّة. لكن لّما كان البنسيون مليئاً، فقد أُسْكِنْتُ عند أسْرة.

كلّ صباح، كانت مؤجّرتي تفتح بابي وتضع في أسفل سريري قدحاً بَاخراً من morning tea [شاي الصّباح] كنتُ دوماً أشربه بارداً. كنت أستيقظ دائماً متأخّراً جداًّ، ولم أنجح سوى مرّة أو مرّتيْن في الوصول في الوقت لتناول البريكفست [الفطور] الوفير الذي كان يُقدّم في البّنسيون.

لاشكّ نتذكّر أنّه في ذلك الصّيف، عقب اتّفاقيات جنيف [مع الفيتنام] والمفاوضات مع تونس والمغرب، عرفت الكرة الأرضية بأجمعها السّلام لأوّل مرّة منذ عقود : لم يدم هذا الوضع أكثر من بضعة أيّام و لا أعتقد أنّه قد تجدّد منذئذ.

الذّكريات تستمسك بضيقِ ذلك السّرير، بضيق تلك الغرفة، بحَرَافَة ذلك الشّاي الثّقيل أكثر ممّا ينبغي، البارد أكثر ممّا ينبغي : ذلك الصّيف، احتسيتُ البِينْكْ، جرعات من الجين مكلّلة بقطرة من الأنْغُسْتُورة، غازلت، دون طائل كبير، بنت صاحب مصنع غزْل عاد مؤخّراً من الإسكندرية، قررتُ أنْ أصير كاتباً، تعلّقتُ بأن أعزف على أرغونات قرويّةِ اللّحنَ الوحيد الذي نجحتُ أبداً في تعلّمه : النّوطات الأربع والخمسون الأولى-باليد اليمنى، اليسرى كانت تتخلّى في الأغلب عن المتابعة-من مقدّمة موسيقيّة ليوهان-سباستيان باخ...

فضاء الغرفة المُنبَعِثُ يكفي ليحرِّك، ويُعِيد، ويؤجِّج ثانية سواءالذّكريات الأشدّ عابريّة، الأكثر بساطة، أو تلك الأكثر جوهريّة. إنّ يقين الحسّ المتزامن لجسدي على السّرير، واليقين الموقعي للسّرير في الغرفة، لوحدهما يجدّدان نشاط ذاكرتي، ويمنحانها حدّة ودقّة لا تملكهما بطريقة أخرى. وكما أنّ كلمة مستخرجة من حلم، ما أنْ تُكتَب حتّى تستعيد ذكرى هذا

الحلم كاملة، فهنا مجرّد معرفة (دون ما حاجة تقريباً للبحث عن ذلك، فقط بالاستلقاء بعض اللّحظات و إغماض العينيْن) أنّ الجدار كان على يميني، والباب بجانبي على اليسار (كنت أستطيع، برفع يدي، أنْ ألمس مقبض الباب)، وأنّ النّافذة تجاهي، تجعل فيضاً من التّفاصيل ينبجس فوراً وفي اختلاط، يتركني ألَقُها منذهلاً : هذه الفتاة بهيئة الدُّمية، هذا الأنجليزي الوافر الطُّول ذو الأنف المائل قليلاً (رأيته من جديد في لندن لمّا ذهبت لأقضي فيها ثلاثة أيّام في نهاية هذه الإقامة اللّغوية المزعومة : أخذني إلى حان غارق في الخضرة لم أتمكّن، للأسف، من العثور عليه منذئذ، وإلى حفلة موسيقيّة في ألبرت هال، حيث كنت فخوراً جداً بأنْ استمع، ربّما تحت قيادة سر جون باربيرولي، إلى كونتشرتو للهارمونيكا والجوق كُتبَ خصيصاً للّاري آدلر...)، المارشْمالُويْزْ [حلوى الخِطمي]، ولرُّوكْ رُوكْ (أصابع حلوى بسكّر الشّعير مُزَيّنة)، من خصوصيات محطّات الاستحمام ؛ أشهرها البْرَايْتون روك التي هي، علاوة على تلاعب بالألفاظ-توجد صخرة [رُوكْ] في برايتون كما توجد أجْرَاف في إِتْرِيتا [في فرنسا]-، عنوان رواية لغراهام غرين ؛ و في رُوكْ نفسها كان من الصّعب الإفلات منها)، والشّاطئ الرّمادي، والبحر البارد، ومناظر الغابات الصّغيرة، بقناطرها الصّغيرة من الحجر، المُؤَاتية لظهور العفاريت ونيران المستنقعات...

لا شكّ أنّه بسبب أنّ فضاء الغرفة يشتغل عندي مثل [حلْوى] مادلين پروستية (طبعاً كلّ هذا المشروع موضوع تحت استلهامه : إنّه لا يرغب أنْ يكون شيئاً آخر سوى مجرّد تفصيل للفقرتيْن السّادسة و السّابعة من الفصل الأوّل من القسم الأوّل (**كُومْبْرايْ**) من المجلّد الأوّل (**في جهة سْوَانْ**) من [رواية مارسيل پروست] **بحثاً عن الزّمن الضّائع**) فقد شرعتُ، منذ سنوات عديدة سلفاً، في القيام بجَرْدٍ، استيعابيّ ودقيق قدر الإمكان، لجميع **الأمكنة التي نِمْتُ فيها**. في الوقت الرّاهن، لم أشرع عملياً في وصفها ؛ وبالمقابل أظنّ أنّني أحصيتها جميعها تقريباً : إنّها تقارب المئتيْن (لا ينضاف إليها أكثر من نصف دزينة سنوياً : لقد صرتُ أمْيَلَ إلى الاستقرار في البيت). لم أختر نهائياً طريقة تصنيفها. من المؤكّد أنّ ذلك لن يكون وفق التّرتيب الزّمني. ولا وفق التّرتيب الأبجدي (مع أنّه التّرتيب الوحيد الذي ليس من اللّازم تبرير ملاءمته). ربّما وفق هيئتها الجغرافيّة، ممّا سيؤكّد على مظهر « المرشد [السّياحي]» لهذا الكتاب. أو بالأحرى بحسب منظور ثيماتي قد يُفْضِي إلى نوع من تنميط غرف النّوم :

1. **غُرَفي الخاصّة.**

2. مراقد جماعيّة و عنابر.

3. غرفٌ مُضيفَة.

4. غرف الضّيوف.

5. مراقد مرتجلة (أرائك، مُوكِيط + مخدّات، زرابي، كراسي الاسترخاء، إلخ.)

6. مساكن ريفيّة.

7. ڤيلا مستأجرة.

8. غرف الفنادق

أ - فنادق حقيرة، غرف مؤثّثة، مفروشة.

ب - فنادق فاخرة.

9. ظروف غير عاديّة : ليالٍ في القطار، في الطّائرة، في السيّارة ؛ ليالٍ في السّفينة؛ ليالي الحراسة ؛ ليالٍ في مركز الشّرطة ؛ ليالٍ تحت الخيام ؛ ليالي المستشفى ؛ ليالي الأرق، إلخ.

في عددٍ قليلٍ من هذه الغرف، قضيت شهوراً عديدة، سنين عديدة ؛ في معظمها لم أقض سوى بضعة أيّام أو بضع ساعات ؛ وقد يكون مجازفةً منّي الادّعاء أنّ بمقدوري تذكّر كلّ واحدة منها : ماذا كانت تزاويق الورق المرسوم الذي يغطّي جدران تلك الغرفة من فندق أسد الذّهب، في سان-شِلي-داپشي (كان الاسم-الأشدّ إدهاشاً حين يُنطَق منه حين يُكتَب-لمركز مقاطعة لُوزير [في جنوب فرنسا] الذي، لأسباب أجهلها، قد انغرس في ذاكرتي منذ الصفّ الثالث [من تعليمي الابتدائي] وكنت قد ألححتُ كثيراً لكي نتوقّف فيه)؟ لكن من البديهي أنّ مِنْ الذكريات المنبعثة من جديد لهذه الغرف الزّائلة كنت أنتظر أكبر التّجلّيات.

2

مسألة صغيرة

عندما نُبَدِّل، في غرفة معيّنة، مكان السّرير، هل يمكن القول إنّنا بدّلنا الغرفة بغرفة أخرى، أم ماذا؟

(انظر التّحليل الهندسي اللاّكمّي).

3

أنْ تسكن غرفة، ماذا يعني هذا ؟ أنْ تسكن مكاناً، هل يعني أنّك تتملّكه؟ ما معنى أنْ تتملّك مكاناً؟ منذ متى يصبح مكانٌ حـقّاً في ملكك؟ أيكون ذلك حين تنقع الثّلاثة أزواج من جواربك في طشت من مادّة بلاستيكية وردية؟ أيكون ذلك حين تعيد تسخين سپاغيتي فوق فرن غاز صغير؟ أيكون ذلك حين تستعمل جميع العلاّقات غير المتجانسة في صوان الملابس؟ أيكون ذلك حين تثبّت بالمسامير على الجدار بطاقة بريدية عتيقة تمثّل [لوحة] حلم القدّيسة أرسولا لـ[لرسّام] كارْپاتشيو؟ أيكون ذلك حين تعاني عذابات الانتظار، أو تهوّسات العشق، أو آلام الأسنان؟ أيكون ذلك حين تعلّق على النّوافذ ستائر تروقك، وتضع الورق الملوّن، وتصقل الأرضيّة الخشبيّة؟

4

فكرة صغيرة وديعة رقم 1

إنّ أيّ صاحب قطٍّ سيقول لك عن حقّ أنّ القطط تسكن البيوت أفضل من النّاس بكثير. فهي، حتّى في الفضاءات المُربَّعة الزّوايا بشكل رهيب، تعرف كيف تعثر على خلوات ملائمة.

فكرة صغيرة وديعة رقم 2

الزّمن الذي يمرّ (تاريخي أنا) يُودِعُ بقايا تتراكم : صُوَر، رسوم، رُفَاتُ أقلام فيتْر جفَّتْ منذ زمن بعيد، ملفّات، آنية زجاجية ضائعة، وآنية زجاجيّة في الإيداع، لَفّات السّيجار، عُلَبٌ، مماحي، بطائق بريديّة، كتب، غبارٌ وزخارف : ذلك ما أُسَمِّيه ثروتي.

الشقّة

1

مدّة عامين، كانت لي جارة عجوز جدّاً. كانت تسكن العمارة منذ سبعين عاماً، وكانت أرملة منذ ستّين عاماً. أثناء الأعوام الأخيرة من حياتها، بعد أنْ أصيبت بكسر في عنق الفخذ، لم تذهب أبعد من ردهة طابقها. كان البوّاب، أو صبيّ من العمارة، يقومان بحاجاتها. أوقفتني في السلّم، عدة مرّات، لتسألني في أيّ يوم نحن. ذات يوم ذهبت لأبحث لها عن شريحة من الجامبون. أهدتني تفّاحة ودعتني للدّخول. كانت تسكن وسط أثاث شديد القتامة، تُمضي وقتها في صقله.

2

منذ أعوام، كان أحد أصدقائي قد قرّر أنْ يعيش شهراً كاملاً في مطار دولي، دون أنْ يخرج منه (إلاّ- ما دامت المطارات الدولية في حقيقة أمرها متشابهة-ليركب طائرة ستقوده إلى مطار دولي آخر). لم يُحقّق، في حدود علمي، هذا المشروع، لكن لا نرى موضوعياً ما الذي قد يمنعه من تحقيقه : فأهمّ النّشاطات الحيوية وأغلب النّشاطات الاجتماعية يمكن دون عناء أنْ تُنجَز داخل إطار مطار دولي : توجد فيه فوتيلات وثيرة ومقاعد ليست غير مريحة أكثر ممّا ينبغي، وفي الأغلب توجد حتّى قاعات للرّاحة حيث يمكن للمسافرين العابرين أخذ نومة خفيفة ؛ توجد فيه مراحيض، ومغاسل-دوش وغالباً ما توجد صونات وحمّامات، ويوجد فيه حلاّقون، وبيدوكورات، وممرّضات، ودلاّكون طبّيون، وماسحو الأحذية، وبريسنجات سريعة يُسعدها كذلك إصلاح كعوب الأحذية وإنجاز نسخة من المفاتيح، وساعاتيون ونظّاراتيون ؛ توجد فيه مطاعم، وحانات وكافيتيريات، باعة الجلد وباعة العطور، باعة الزهور، وباعة الكتب، وباعة الأسطوانات، باعة التّبغ وباعة الحلويات، باعة أقلام الحبر ومصوِّرون ؛ توجد فيه بقالات تغذية، ودور السينما، ومركز بريد، ومصالح سكرتارية متنقّلة، و- بالطبع- كدس من الأبناك (ذلك أنّه عملياً يستحيل، في أيّامنا هذه، أنّ تعيش دون أن تكون لك علاقة ببنك).

أهمّية مثل هذا المشروع تقوم في لامألوفيته : انتقال في المكان، ظاهري أكثر منه حقيقيّ، عادات وإيقاعات، مشاكل تكيُّف صغيرة. لاشكّ أنّ ذلك سرعان ما سيصير مملاً ؛ وفي النّهاية، سيكون ذلك بالغ السّهولة وبالتّالي لا يبرهن على شيء كثير : المطار، منظوراً إليه من هذه الزّاوية، ليس شيئاً سوى رواق تجاري : صورة وهميّة لحيٍّ سكني ؛ إنّه يقدّم، تقريباً، نفس خدمات فندق. لا يمكن إذن من مثل هذا المشروع استخلاص أيّ خلاصة عمليّة، لا في اتّجاه قلب الأوضاع، ولا في اتّجاه التّأقلم معها. وفي أحسن الأحوال، يمكن استخدامه موضوعاً لريبورتاج، أو نقطة انطلاق لآخر سيناريو كوميدي.

3

الغرفة، هي حجرة يوجد بها سرير ؛ غرفة الطّعام، هي حجرة توجد بها مائدة وكراسي، وغالباً صوان للأواني ؛ الصّالون، هو حجرة توجد بها فوتيلات وأريكة ؛ المطبخ، هو حجرة توجد بها مطبخة وأنبوب لوصول الماء؛ الحمّام، هو حجرة يوجد بها أنبوب لوصول الماء فوق مغطس ؛ وحين لا يوجد سوى دوش، تُسمّى دورة المياه، وحين يوجد بها مغسل فقط، تسمّى مرحاضاً ؛ المدخل، هو حجرة أحد أبوابها على الأقلّ يؤدّي إلى خارج الشقّة ؛ وعَرَضياً يمكن العثور فيها على مشجب ؛ غرفة الأطفال، هي حجرة يوضع فيها طفل ؛ خزانة حائطية للمكنسات، هي حجرة توضع فيها المكانس والمكنسة الكهربائيّة ؛ غرفة الخادمة، هي حجرة تُؤَجَّر لأحد الطلبة.

من هذا التّعداد الذي من اليسير مواصلته، يمكن استخلاص خلاصتيْن مبدئيتين أقترحهما بمثابة تعريف :

1. كلّ شقّة مكوّنةٌ من عدد متغيِّر، لكن محدود، من الغرف.

2. كلّ غرفة ذات وظيفة خاصّة.

يبدو من العسير، أو بالأحرى من التّافه مُسَاءلة هذه البديهيات. الشّقق يبنيها مهندسون معماريون يملكون أفكاراً دقيقة جدّاً حول ما ينبغي أنْ يكون عليه مدخل، و صالة جلوس (*living-room*، غرفة استقبال)، وغرفة والديْن، وغرفة أولاد، وغرفة خادمة، ورواق بين غرفتين، ومطبخ وحمّام. لكن، مع ذلك، في المنطلق، كلّ الغرف تتشابه قليلاً أو كثيراً،

ولا حاجة لمحاولة التّأثير علينا بحكايات مقياس التّناسب وأمثال هذه الترّهات : إنّها ليست أبداً سوى أنواع من المكعّبات، أو لنَقُلْ متوازي المستطيلات ؛ لها دائماً على الأقلّ باب و- أيضاً في الغالب - نافذة، وهي مُدَفْأةٌ، لنفرض برادياتور، ومجهزّة بقابس أو قابسيْن للتيّار الكهربائي (نادرٌ جداًّ أنْ تكون أكثر، لكن لو شرعت في الكلام عن دناءة المقاولين، فلن أنتهي من ذلك أبداً). الخلاصة، إنّ الغرفة فضاء أمْيَلُ إلى الطّواعيّة.

لا أعرف، ولا أرغب في أنْ أعرف، أين يبدأ وأين ينتهي الوظيفي. ما يبدو لي، على أيّ حال، هو أنّ الوظيفي، في التّجزئة النّموذجيّة لشُقَقِ أيّامنا هذه، يشتغل وفق إجراء أحادي الوجهة، و مُتَتالٍ، ولَيْلَنَهَارِيٍّ (1) : تتطابق النّشاطات اليوميّة مع حصصٍ زمنيّة، وكلّ حصّة زمنية تطابقها واحدة من غرف الشقّة. هذا نموذج عنها لا يكاد يكون كاريكاتورياً :

07.00	الأمّ تستيقظ وتذهب لتهييئ الفطور في	المطبخ
07.15	الولد يستيقظ ويذهب إلى	الحمّام
07.30	الأب يستيقظ ويذهب إلى	الحمّام
07.45	الأب والولد يتناولان فطورهما في	المطبخ
08.00	الولد يلبس معطفه في	المدخل
	ويذهب إلى المدرسة	
08.15	الأب يلبس معطفه في	المدخل
	ويذهب إلى المكتب	
08.30	الأمّ تغتسل في	الحمّام
08.45	الأمّ تأخذ المكنسة الكهربائيّة من	الخزانة الحائطيّة
	وتنظّف الشقّة (حينئذ تمرّ بكلّ غرف	للمكانس
	الشقّة، لكنّني لن أقوم بتعدادها)	
09.30	الأمّ تأخذ قُفّتها في	المطبخ
	ومعطفها في	المدخل
	وتذهب للتسوّق	

1) هذه أجمل جملة في الكتاب.

10.30	الأمّ تعود من السّوق وتضع معطفها في	المدخل
10.45	الأمّ تهيّئ الغداء في	المطبخ
12.15	الأب يعود من مكتبه ويعلّق معطفه في	المدخل
12.30	الأب والأمّ يتغدّيان في	غرفة الطّعام
	(الولد نصف داخلي)	
13.15	الأب يلبس معطفه في	المدخل
	ويعود إلى مكتبه	
13.30	الأمّ تغسل الأواني في	المطبخ
14.00	الأمّ تلبس معطفها في	المدخل
	وتخرج للتنزّه أو للتسوّق قبل أنْ تذهب لتأخذ الولد وقت خروج المدرسة	
16.15	الأمّ والولد يرجعان ويضعان معطفيهما في	المدخل
16.30	الولد يتناول أكلة خفيفة في	المطبخ
16.45	الولد يذهب لإنجاز فروضه في	غرفة الأولاد
18.30	الأمّ تهيّئ العشاء في	المطبخ
18.45	الأب يعود من مكتبه ويضع معطفه في	المدخل
18.50	الأب يذهب ليغسل يديه في	الحمّام
19.00	كلّ الأسرة الصّغيرة تتعشّى في	غرفة الطّعام
20.00	الولد يذهب لتنظيف أسنانه في	الحمّام
20.15	الولد يذهب لينام في	غرفة الأولاد
20.30	الأب والأمّ يذهبان إلى	الصّالون
	يشاهدان التلفزيون، أو يستمعان للإذاعة أو يلعبان الورق أو يقرأ الأب الجريدة في حين تخيط الأمّ، وباختصار ينهمكان	
21.15	الأب والأمّ يذهبان لتنظيف أسنانهما في	الحمّام
22.00	الأب والأمّ يذهبان للنّوم في	غرفتهما

قد يُلاحَظ، في هذا النّموذج الذي أودّ التّأكيد على طابعه الخيالي والإشكالي في آن واحد مع بقائي مقتنعاً بصوابه المبدئي (لا أحد يعيش بالضبط هكذا، بالتّأكيد، غير أنّه هكذا، لا بطريقة أخرى، يرانا المعماريون والمهندسون الحضريون نعيش أو يريدون لنا أنْ نعيش)، يُلاحظ إذن، من جهة، أنّ الصّالون و الغرفة لا يكادان يكونان أكثر أهمّية في هذا النّموذج من خزانة المكانس (في خزانة المكانس، تُودَعُ المكنسة الكهربائية، وفي غرفة النّوم تودع الأجساد المنهوكة : إنّ هذا يُحيل على نفس وظائف الرّاحة والصّيانة) ومن جهة أخرى، أنّ نموذجي عملياً لن يتغيّر كثيراً لو أنّه، عوضاً أنْ يكون له، كما هو الشّأن هنا، فضاءات تَعزِلُها فَوَاصِلُ تُحَدِّدُ غرفة، وصالوناً، وغرفة طعام، ومطبخاً، إلخ. فقد يُتَصَوَّرُ، كما يُصنَع هذا كثيراً هذه الأيّام، فضاءٌ وحيد مزعوم يدّعي قابليّة التّشكيل (غرفة جلوس، قاعة جلوس، إلخ.) : سيوجد إذن، لا مطبخ، بل ركنٌ–مطبخٌ، لا غرفة، بل ركنٌ–استراحة، لا غرفة طعام، بل ركن–طعام.

يمكن، دون عناء، تصوّر شقّة لن يقوم ترتيبها على نشاطات يوميّة، بل على وظائف العلاقات : بهذه الطّريقة كانت تجرى التّجزئة النّموذجيّة للغرف المسمّاة غرف الاستقبال بالقصور الخاصّة في القرن الثّامن عشر [بفرنسا] أو في الشّقق البرجوازية الكبيرة أواخر القرن [التّاسع عشر] : سلسلة من الصّالونات المتتالية، يحكمها بهوٌ كبير، و تعتمد في تخصيصاتها على تنويعات طفيفة تدور حول فكرة الاستقبال : الصّالون الكبير، الصّالون الصّغير، مكتب السيّد، مخدع السيّدة، غرفة التّدخين، مكتبة، صالة البليار، إلخ.

لابدّ، دون شكٍّ، من مزيد من الخيال لِتَصَوُّرِ شقّة تكون تجزئتها قائمة على وظائف حسّية : يمكن جيّداً تصوُّر ما قد يمكن أنْ يكون عليه غرفة التذوّق أو غرفة السّماع، لكن يمكن التّساؤل عن أيّ شيء ستكون هيئة غرفة الرؤية، أو غرفة الشّمّ، أو غرفة اللمس...

بطريقة لا تكاد تكون أكثر خرقاً للمواضعات، يمكن التّفكير في تقسيم يقوم، لا على إيقاعات لدورة أحادية اليوم، بل على إيقاعات دورة سباعيّة الأيّام (1) : هذا سيعطي شققاً من سبعة غرف، مُسَمّاة على التّوالي : غرفة الإثنين، غرفة الثّلاثاء، غرفة الأربعاء، غرفة الخميس،

1) إنّ سكناً قائماً على إيقاع دورة سنويّة يوجد لدى قلّة من المحظوظين الذين يتوفّرون على ما يكفي من الإقامات ليستطيعوا محاولة التّوفيق بين إحساسهم بالقيَم، وميلهم للأسفار، والظروف المناخيّة والمقتضيات الثّقافية. فنصادفهم مثلاً، في يناير بالمكسيك، وفي فبراير بسويسرا، وفي مارس بالبندقيّة، وفي أبريل بمراكش، وفي ماي بباريس، وفي يونيه بقبرص، وفي يوليوز ببايروث [في ألمانيا]، وفي أغسطس بدوردوني [في فرنسا]، وفي سبتمبر بسكتلاندا، وفي أكتوبر بروما ، وفي نونبر بالكوت دازور [في فرنسا]، وفي ديسمبر بلندن.

غـرفة الجـمعـة، غرفـة السّبت، غـرفة الأحـد. لابدّ من ملاحـظة أنّ هاتين الغرفـتين الأخيرتين توجدان سلفـاً، يتمّ تسويقهـما بغزارة تحت اسم «الإقامـات الثّانوية»، أو «مسـاكن عطلة نهاية الأسبوع». إنّ تصوّر غرفـة مخصّصة حصرياً ليوم الإثنين لن يكون أكـثر بلاهة من بناء فُيلات لا تستـعـمل سوى ستّين يوماً في السّنة. غرفـة الإثنين يمكن أنْ تكون تماماً مـغسلاً للثياب (أسلافنا القـرويون كانوا يغسلون ثيابهم يوم الإثنين) وغـرفة الثّلاثاء صالوناً (أسـلافنا المدينيون كانوا يفـضّلون استقـبال الزّائرين يوم الثّـلاثاء). هذا، بالطّبع، لن يُخرجنا مطلقـاً من الوظيفي. من الأفـضل إذن، ما دام ينبـغي ذلك، تخيّل ترتيب ثيـماتي، مماثـلٍ شيئـاً مّا لذلك الـذي كان موجـوداً في المباغي (كانت قد جُـعلت، بعد إغلاقـها، وحتّى الخمـسينات، مسـاكن للطّلبة ؛ وهكذا عـاش كـثير من أصـدقائي في « مـاخور» سـابق بشارع أرْكَـادْ : أحدهم كـان يسكن «غرفـة التّعـذيب»، وآخر «الطّائرة» (سرير على شـكل داخل الطّائرة، نوافذ مصـطنعة، إلخ.)، وثالث «كوخ قنّاص» (جدران مـفروشة بجذوع صنوبر مقشور مـصطنعة، إلخ.)؛ هذه الوقائع تستحـقّ التّذكـيـر، خصـوصـاً لكاتب مـقـال [«سكنى اللاّمـعتـاد»] "Habiter l'inabituel" (Cause commune, 1;n°2, 13-16, 1972) الذي هو أيضاً المدير المحترم للسلسلة التي يصدر فـيـهـا هذا الكتـاب) : غرفـة الإثنين، مـثـلاً، ستـحـاكي سفـينـة ؛ يكون النّوم في الأراجيح [الهامـاك]، وتُغسَل الأرضـيّة الخـشبـية بالماء، ويكون الطّعـام سمكاً ؛ وغـرفة الثّـلاثاء، لمَ لا، ستحـتفي بذكـرى واحد من فـتوحـات الإنسان للـطّبـيعة، اكـتشـاف القطب (الشّـمالي أو الجنوبي، على الخيار)، أو تسـلّق الإفرست : لن تكون الحجرة مُدفـأة، وسيكون النّوم تحت فرو سميـك، ويكون الغذاء مؤسّسـاً على البِّيمِكان (لحم بقريّ مـحفوظ أواخر الشّـهر، ولحم دي گريزون أيّـام السّعد)؛ وغـرفة الأربعـاء، ستـمجّـد طبعاً الأطفـال : إنّه منذ مدّة اليوم الذي لا يذهبون فيـه إلى المدرسة، سيكون شيئاً أشبه بقصر السيّدة زبدة : ستكون الجدران من كعك الأبازير والأثاث من عجينة التّشكيل، إلخ.

4

عن فضاءٍ عديم الجدوى

حاولت عدة مـرّات أنْ أفكّر في شقّة ستـكون بها حجرة لا جدوى منها، لا جدوى منهـا إطلاقاً وعنوةً. لن تكون غـرفة مـهـملات، لن تكون غرفـة نوم إضافـية ولا دهليزاً، ولا بنيّقة، ولا رُكْنَةً. كانت ستكون فضاء لا وظيفة له. لن يصلح لشيء، ولن يُحيل على شيء.

استحال عليّ، رغم جهودي، أنْ أتابع هذه الفكرة، هذه الصّورة، حتّى النّهاية. إنّ اللّغة نفسها، على ما يبدو لي، تَكَشَّفَ عجزُها عن وصف هذا اللاّشيء، هذا الخواء، كأنْ لم يكن بالإمكان الكلام إلاّ عن ما هو مليءٌ، ومُجْدٍ، ووظيفيّ.

فضاءٌ دون وظيفة. ليس «دون وظيفة مُحدَّدة»، بل تحديداً دون وظيفة ؛ ليس متعدّد الوظائف (هذا، جميع النّاس تعرف كيف تصنعه)، بل لا-وظيفياً. ما كان ليكون طبعاً فضاءً مُعَداً بالتّخصيص لـ «إخلاء» الفضاءات الأخرى (غرفة مهملات، خزانة حائطيّة، خزانة الثياب، ركن محفوظات، إلخ.) بل فضاءً، وأُكرِّر ذلك، لا يكون صالحاً لأيّ شيء.

أستطيع أحياناً أنْ لا أفكّر في شيء، وليس حتّى مثل صاحبنا پييرو، حين موت لويس السّادس عشر : بغتة أكتشف أنّني هنا، أنّ المترو قد توقّف، وأنّني غادرت [محطّة] ديگوميي، وأنا الآن حقّاً وحقيقاً في [محطّة] ديمينيل. لكنّي، بالمقابل، لم أستطع أنْ أفكّر في لا شيء. كيف التّفكير في لاشيء؟ كيف التّفكير في لا شيء دون أنْ نضيف آلياً شيئاً مّا حول هذا اللاّشيء، ممّا يجعل منه فجوة نسارع لنجعل فيها شيئاً مّا، ممارسةً، أو وظيفة، أو مصيراً، أو نظرة، أو حاجة، أو نقصاً، أو فائضاً...؟

حاولت أنْ أتابع بانصياعٍ هذه الفكرة الرّخوة، فصادفت كثيراً من الفضاءات غير القابلة للاستعمال، وكثيراً من الفضاءات غير المستعمَلة. لكنّي لم أكن أريد لا غير القابل للاستعمال، ولا غير المستعمل، بل اللاّمُجْدِي. كيف نَفْيُ الوظائف، نَفْيُ الإيقاعات، والعادات، كيف نَفْيُ الضّرورة؟ تخيّلت أنّني أسكن شقّة شاسعة، شاسعة إلى حدّ أنّني لم أكن أستطيع أبداً أنْ أتذكّر كم كان فيها من الغرف (كنت أعلم ذلك، فيما مضى، لكنّي نسيته، وكنت أعلم أنّني هَرِمْتُ بحيث لا يمكنني تكرارُ عمليّة تعداد بهذا التّعقيد) : كانت كلّ الغرف، ما عدا واحدة، تصلح لشيء مّا. المهمّ هو العثور على الأخيرة. لم يكن ذلك، في الجملة، أصعب، بالنّسبة لمطالعي **مكتبة بابل** [في قصّة بورخيس]، من عثورهم على الكتاب الذي يمنح مفتاح الكتب الأخرى. كان يوجد بالفعل شيءٌ أقرب إلى الدّوار البورخيسي في محاولة تخيّل قاعة مخصّصة لسماع السّمفونية الثّامنة والأربعين بمقام دو، المُسمّاة ماريا-ثيريزا، لجوزيف هايدن، وأخرى مخصّصة لقراءة البارومتر أو تنظيف إبهام قدمي الأيمن...

فكّرت في الأمير العجوز بولكونسكي [في رواية **الحرب والسّلام** لتولستوي]، وقد أقلقه مصير ابنه، يبحث عبثاً طوال اللّيل، من غرفة إلى أخرى، حاملاً مشعلاً، متبوعاً بخادمه

تيخون يحمل أغطيـة من الفرو، عن السّرير الذي سيجد فيـه أخيراً النّوم. فكّرت في رواية من الخيال العلمي تكون فيـها فكرة السّكن نفسها قد اختفت ؛ فكّرت في قـصّة أخرى لبورخيس (السّرمـديّ) حيث أناسٌ لم تعـد تسكنهـم ضرورة الحياة والموت قد بـنوا قصوراً من الأطلال وسلالم غير قابلة للاستعمال ؛ فكّرت في صور محفورة لإيشر ولوحات لماغريت ؛ فكّرت في صندوق ضـخم لسكينّر : غـرفـة مُـجَلّلة بأكـملهـا بالسّـواد، زرٌ وحيـد على أحد الجدران : بالضّغط على الزرّ، يظهـر، للحظة وجيزة، شيء أشبه بصليب مالطة [صليب مُربّع] رمادي، على أرضيّة بيـضاء... ؛ فكّرت في الأهرام الكبرى وفي لوحات دواخل الكنيسة للرسّام ساينردام ؛ فكّرت في ذكرى غامضة كانت لي عن نصٍّ لهايسنبيتل يكتشف فيه السّارد غرفة بلا أبواب ولا نوافذ ؛ فكّرت في أحلام حلمتها حول هذا الموضـوع نفسه، مكتشفاً في شقّتي ذاتها غرفة لم أكن أعرفها...

لم أصل أبداً إلى شيء مُرْضٍ حقّاً. لكنّي لا أعـتقـد أنّني قـد أهدرت وقتي تماماً في محاولة تخطّي هذا الحدّ البعيد الاحتـمال : يبدو لي، عبر هذا الجـهد، أنّ شيئاً مّا يتراءى قد يكون هو وضعيةُ اَلْيسْكَنُ...

5

أنْ ترْحَلَ

أنْ تغادر شقّة. تخلي المكان. تنصرف. تفرغ المكان. تذهب لحال سبيلك.

أنْ تُحصي تُرتّب تُصنّف تتخيّر

تطرح ترمي تبيع

تكسر

تحرق

تهبط تَفُضُّ تنزع تقلع تَفُكُّ تُنَزِّلَ

تَفْصِلَ تحُلُّ تقطع تجرّ تُفَكِّكَ تطوي تقطع

تُدَحْرِجَ

تَصُرُّ تَلُفُّ تَعْقِدَ تربط تُنَضِّدَ تجمع تُكَدِّسَ تحزم تُغَلِّفَ تحمي تغطّي تُحيط تَشُدُّ

تأخذ تحمل ترفع

تكنس

تُقفل

تذهب

أنْ تَسكُنَ

أنْ تُنظِّفَ تفحصَ تحاولَ تغيِّرَ ترتِّبَ تُوَقِّعَ تنتظر تتخيّل تبتكر تحتلّ تُقرِّر تَثْنِيَ تطوي تَحْنِيَ تُغْمِدَ تُجهِّز تُعَرِّيَ تشقّ تُدير تقلبَ تَدُقّ تدمدم تندفع تَدْعَكَ تُمَحْوِرَ تحمي تغطّي تفسد تنتزع تقطع تُوصِلَ تُخفِيَ تُطلِقَ تُشَغِّلَ تُركِّبَ تُصلِحَ تُغَرِّي تكسِّر تربط تجتاز تُكَوِّمَ تُكدِّس تشحذ تصقل تدعِّم تغرز تُوَتِّدَ تعلّق تُصفِّفَ تنشر بالمنشار تُمَسْمِرَ تُحَدِّد تسجِّل تحسب تتسلّق تُمَتِّرَ تسيطر تَرَى تَذْرَعَ تَضغط بكلّ ثقلك تَدْهَنَ تَجلُو تصبغ تَدْعَكَ تَحُكُّ تَقْرِنَ تتسلّق تتعثّر تتخطّى تَفقدَ تَعثُرَ تُقلِّبَ تَعبَثَ تنظّف بالفرشاة تُصَمِّغَ تُفرِغَ تُخفِيَ تُصَمِّغَ تُسَوِّيَ تذهب وتجيء تُلَمِّعَ تُنشِّفَ تُعْجَبَ تندهش تتنرفز ينفد صبرك تُؤَجِّلَ تُثَمِّنَ تَجْمَعَ تُدْرِجَ تختم بالختم تُسَمِّرَ تُبَرْغِي تُلَوْلِبَ تُقَرفص تَجثَّمَ تتضجّر تُمركز تبْلُغَ تغسل تُصبِّنَ تُقَوِّمَ تحسب تدعم تنقص تُضاعف تنتظر طويلاً تُخطِّط تشتري تقتني تستقبل تُرْجِعَ تَفُكّ تَحُلّ تُؤَزِّرَ تُؤطِّر تُرصِّع تلاحظ تعتبر تحلم تحدِّق تحفر تَسكُنُ الأوّلَ بيتاً جديداً تُخَيِّمَ تُعَمِّق ترفع تتزوّد تجلس تتكئ تُثَبِّت تَشطُفَ تُسَلِّكَ تُكَمِّلَ تُصنِّفَ تَكنسَ تتنهّد تُصَفِّرَ وأنت تعمل تُبَلِّلَ تفتتنَ تقتلع تعلن تلصق تحلف تُلِحُّ تَخُطُّ تصقل تنظّف بالفرشاة تصبغ تحفر تُوصِلَ تشعل تبدأ تُلْحِمَ تنحني تقلع المسامير تشحذ تستهدف تعبث تنقص تدعم تَخُضُّ قبل الاستعمال تَسُنُّ تنذهل تُتْقِنَ تُلَهْوِجَ تكشط تنفض الغبار تُنَاوِرَ تَرُشُّ تُوَازِنَ تتحقّقَ تُبَلِّلَ تطبع تُفرغ تَجْرِشَ تخطّط تشرح تهزّ كتفيك تضعَ مقبضاً تَقْسِمَ تمشي طولاً وعرضاً تعمل تَشُدُّ تُوَقِّتَ تنضّد تُقَارِبَ تُجَانِسَ تُنَصِّعَ تُبَرْنِقَ تَسُدُّ تعزل تُقَدِّرَ تشبك بدبّوس ترتّب تدهن تُعلِّقَ تُعَاوِدَ تُدْرِجَ تَبْسُطَ تغسل تبحث تدخل تستردّ أنفاسك

تستقرّ

تسكن

تعيش

نحتمي، نتمترس. الأبواب تُوقِف وتفصل.

الباب يكسر الفضاء، يُجَزِّئه، يمنع التّنافُذَ، يفرض القَطْع : من جهة، يوجد أنا ومسكني الخاصّ، الشخصي، البيْتي (الفضاء المكتظّ بممتلكاتي : سريري، بساطي، طاولتي، آلتي الكاتبة، كتبي، أعدادي النّاقصة الأجزاء من [مجلّة] *La Nouvelle Revue Française*) من جهة أخرى، يوجد الآخرون، العالم، العمومي، السياسي. لا يمكن الذهاب من أحدهما إلى الآخر بالاستسلام للانسياب، لا يمكن العبور من واحد لآخر، لا في هذا الاتّجاه، و لا في اتّجاه آخر : لا بد من كلمة السرّ، لابدّ من اجتياز العتبة، لابدّ من الاستئذان، لابدّ من التّواصل، كما يتواصل السّجين مع الخارج.

في الشّريط السينمائي **الجزيرة المحظورة**، يُستنتج من شكل الأبواب المثلّث و من حجمها الهائل بعضُ الخصائص المورفولوجية لبُنَاتِها الغابرين ؛ الفكرة مذهلة بقدر ما هي مجّانية (لماذا مثلّثة؟) لكن لو لم تكن أبواب على الإطلاق، لكان يمكن أنْ يُستنتج منها استنتاجات أشدّ إدهاشاً بكثير.

كيف التّوضيح؟ لا يتعلّق الأمر بأنْ تفتح أو لا تفتح بابك، لا يتعلّق الأمر بأن «تترك المفتاح على الباب» ؛ المشكلة ليست هي أنْ تكون أو لا تكون مفاتيح : لو ما كان بابٌ ما كان مفتاح.

من العسير طبعاً تخيُّل منزل لا باب له. شاهدت واحداً منها ذات يوم، منذ عدّة أعوام، في لنسينگ، ميشيگان، الولايات المتحدّة الأمريكية. كان قد بناها فرانك لويد رايت : يُبدأ بأخذ ممرٍّ متعرّج قليلاً ترتفع على يساره، بالتّدريج، بل برخاوة متناهية، انحدارة خفيفة، تكون أوّلاً مائلة، ثمّ تقترب شيئاً فشيئاً من الخطّ العمودي. قليلاً قليلاً، كأنّ ذلك محض مصادفة، دون إدراك لذلك، دون أنْ يكون بالإمكان في أيّ لحظة تأكيد إدراك بوجود ما يشبه انتقالاً، أو قطيعة، أو عبوراً، أو انقطاعاً، يصبح الممرّ حجرياً، أي أنّه لم يكن في البداية سوى العشب، ثمّ بدأت توجد أحجار بين العشب، ثم صارت توجد حجارة أكثر وكان ذلك يصبح مثل ممشى مُبلّط و معشوشب، بينما على اليسار، كان انحدار الأرض قد أخذ يشبه، بشكل غائم جدّاً، جداراً صغيراً، ثمّ جداراً على شكل ركم كتل حجريّة. ثمّ كان يظهر شيء

مثل سقيفة ذات فتحات لا يمكن تمييزها عملياً عن النّبات الذي كان يكتسحها. لكن في الواقع، كان الأوان قد فات لمعرفة إنْ كنّا في الخارج أو الدّاخل : في نهاية الممرّ، كانت البلاطات متّصلة وكنت تجد نفسك في ما يُسَمّى عادة بالمدخل الذي يُؤدّي مباشرة إلى حجرة شاسعة يفضي أحد امتداداتها إلى شرفة يُزيّنها مسبح كبير. لم يكن سائر المنزل أقلّ لفتاً للنّظر، ليس فقط لرفاهته، ولا حتّى لبذخه، ولكن لأنّه يتكوّن انطباع بأنّه قد انساب في ربوته كقطٍّ يتلفلف في وسادته.

خاتمة هذا الخبر أخلاقية بقدر ما هي متوقّعة : كانت نحو عشرة مساكن متشابهة تقريباً متناثرة على مسالك نادٍ خاصٍّ للگولف. كان الگولف مُسيَّجاً بالكامل ؛ وكان حرّاس ليس من العسير تخيّل أنّهم مسلّحون ببنادق ذات ماسورة مَوْشُورة (شاهدت كثيراً من الأفلام الأمريكيّة إبّان فتوّتي) يحرسون الحاجز المشبك الوحيد للمدخل.

الـدُّرُج

لا يُفَكِّرُ بما فيه الكفاية في الدّرج.

ما كـان شيءٌ أجملَ في المنازل العتيـقة من الدّرج. لا شيء أقبح، ولا أبرد، ولا أشدّ عدوانيّة، ولا أكثر مسكنة، في العمارات الحديثة اليوم.

ينبغي تعلُّم العيش أكثر في الدُّرُجِ. لكن كيف؟

جدران

بما أنه يوجد جدار، ماذا يجري وراءه ؟
جان تارديو

أضع لوحة على جدار. بعد ذلك أنسى أنّه يوجد جدار. ما عدت أعرف ما وراء هذا الجدار، لم أعد أعرف أنّه يوجد جدار، لم أعد أعرف أنّ هذا الجدار هو جدارٌ، لم أعد أعرف ما هو الجدار. لم أعد أعرف أنّ في شقّتي توجد جدران، و أنّه لو لم تكن جدران لما كانت شقّةٌ. لم يعد الجدار هو ما يَحُدُّ ويُعَيِّنُ المكان الذي أعيش فيه، ما يفصله عن الأمكنة الأخرى حيث الآخرون يعيشون، إنّه ما عاد سوى حاملٍ للوحة. لكنّي أنسى كذلك اللّوحة، لم أعد أنظر إليها، لم أعد أعرف كيف أنظر إليها. وضعت اللّوحة على الجدار لأنسى أنّه كان يوجد جدار، لكن وأنا أنسى الجدار، نسيتُ أيضاً اللّوحة. توجد لوحات لأنّه توجد جدران. لا بدّ من القدرة على نسيان أنّه توجد جدران ولم توجد وسيلة أفضل لذلك من اللّوحات. اللّوحات تمحو الجدران. لكنّ الجدران تقتل اللّوحات. وإلاّ ينبغي إذن التّغيير المتواصل، إمّا للجدار، أو للّوحة، وبدون توقّف وضع لوحات أخرى على الجدران، أو طوال الوقت تغيير اللّوحة عن الجدار.

يمكن أنْ يكتب الإنسان على جدران بيته (كما يُكتَب أحياناً على واجهات المنازل، على سياجات الأوراش، على أسوار السّجون)، لكنه لا يفعل ذلك إلاّ في النّادر القليل.

العمارة

1

مشروع رواية

أتخيّل عمارة باريسية انتُزِعَتْ واجـهتها - نوعٌ من المُعادل للسّقف المرفوع في [رواية] «الشيطان الأعـرج» أو مشـهـد لعبـة الگو الممـثّلة في [الرواية اليـابانيـة] Gengi monogatori emaki- بحيث أنّه، من الطّابق السّـفلي حتّى المُسَـقّـفات، تكون كـلّ الغرف الواقـعة على الواجهة فورياً وآنياً ظاهرة.

إنّ الرواية - التي عنوانها هو *La vie,mode d'emploi*- تقتصر (إذا جاز لي استعمال هذا الفعل لوصف مشروع سيكون لتطويره النّهائي نحـو أربعمائة صفحة) على وصف الغرف المكشوفة هكذا والأفعـال التي تجري فيها، وكلّ ذلك وفق سيـرورات شكليّة يبدو لي أنّه ليس من الضّروري الخوض هنا في تفاصيلها، لكن يبدو لي أنّ لمنطوقاتها شيئاً مـن الجاذبية : مسألة الفـرس في الشّطرنج (مـحـوّرة، فـوق هذا، لرقـعـة من 10x10) المسـألة الـشطرنجـيـة Pseudo-quenine منزل 10، ومضاعف التّربيع اللاّتيني المتعامد من منزل 10 (ذلك الذي تنبّأ أُولِر بعدم وجوده، لكن بوز و پاركر و شريكانده برهنوا عليه في 1960).

مصادر هذا المشروع متعدّدة. أحـدها هو رسم لشاوول ستينبرگ، صدر في The Art of Living (Londres,Hamish Hamilton,1952) يمثّل عمـارة مفـروشة (نعلم أنّها مفروشة لأنّه بجانب باب المدخل توجد لافتـة تحمل عبارة No Vacancy [لا توجد غرفة شاغرة]) قد انتزع جزءٌ من واجـهتها، متيـحاً رؤية دواخل حوالي ثلاث وعشرين غرفـة (أقول حوالي، لأنّه توجد بعض المنافـذ على الغرف في الخلف) : الجَرْدُ وحـده - زيادة على أنّه لا يمكن بحال أنْ يكون شاملاً - لعناصر الأثاث والأفعال المصوَّرة يبعث حقّاً على الدّوار.

3 حمّـامات : حمّـام الطّابق الثّالث خـال، في حمّـام الطابق الثّاني امرأة تستحمّ ؛ في حمّام الطّابق السّفلي، رجلٌ يأخذ دُوشاً.

3 مدفآت، من أحجام مختلفة، لكنّها على محور واحد. لا واحدة منها تشتغل (أو إذا شئنا، لا أحد يوقد بها النّار) ؛ مدفأتا الطّابق الأوّل والثّاني مجهّزتان بأثفيات الحطب ؛ مدفأة الطّابق الأوّل يقطعها من وسطها فاصلٌ يقسم كذلك مُتَتّآت ونجمية السّقف.

6 ثريّات و1 مُتَحَرِّك على نمط كالْدِرْ.

5 تلفونات

1 بيانو مستقيم مع مقعده

10 أشخاص بالغين ذكور، منهم

1 يشرب كأساً

1 يكتب على الالة الكاتبة

2 يقرآن الصّحيفة، أحدهما جالس في فوتيل، والآخر متمدّد على كنبة

3 ينامون

1 يأخذ دوشاً

1 يأكل خبزاً محمّصاً

1 يجتاز عتبة غرفة يوجد بها كلبٌ

10 أشخاص بالغين إناث، منهنّ

1 تشتغل

1 جالسة

1 تحمل بين ذراعيها رضيعاً

2 تقرآن، إحداهما، جالسة، صحيفةً، والأخرى، مستلقية، رواية

1 تغسل الآنية

1 تستحمّ

1 تغزل التريكو

1 تأكل خبزاً محمّصاً

1 تنام

6 صبيان، منهم 2 هما بالتّأكيد طفلتان صغيرتان و2 هما بالتّأكيد طفلان صغيران.

2 من الكلاب

2 من القطط

1 دُبّ على عجلات صغيرة

1 قطار صغير

1 دُمية في لانْدُو

6 جرذان أو فئران

عدد لا بأس به من دود الخشب (ليس مؤكّداً أنّـها دود خشب ؛ وعلى أيّ حال فهي أصناف من الحيوانات تعيش في الأرضيات الخشبيّة والجدران)

على الأقلّ 38 لوحة أو صورة مؤطّرة

1 قناعٌ زنجيٌّ

29 مصباح (زيادة على الثريات)

10 أسرّة

1 سرير طفل

3 كنبات إحداها تُستعمل بمثابة سرير غير مريح

4 مطابخ هي بالأحرى كيتشنيتات [مطابخ صغيرة]

7 حجرات أرضيتها مُخَشّبة

1 بساط

2 سجّادة أو سجّادة سرير

9 حجرات أرضيتها دون شكّ مفروشة بالموكيت

3 حجرات مُبَلّطة

1 سلّم داخلي

8 مناضد صغيرة بقائمة واحدة

5 موائد واطئة

5 مكتبات صغيرة

1 رفّ مليء بالكتب

2 ساعة حائطية

5 صوانات

2 مائدة

1 مكتب بمجرّات مع مرفقة ورق نشّافة ومحبرة
2 زوج من الأحذية
1 مقعد حمّام
11 كرسياً
2 فوتيل
1 محفظة من الجلد
1 قميص الحمّام
1 خزانة ثياب
1 ساعة منبّهة
1 ميزان للأشخاص
1 صندوق القمامة بمدوَس
1 قبّعة معلّقة على مشجب
1 بذلة معلّقة على علاّقة ملابس
1 سترة موضوعة على ظهر كرسيّ
غسيل ينشف
3 خزانات صغيرة للحمّام
عدد من القنّينات والقوارير

أشياء عديدة من العسير تبيُّنها (ساعات صغيرة، منافض سجائر، نظّارات، أقداح، صحون صغيرة مليئة بالكاكاويت، مثلاً).

لم يُوصَفْ إلاّ الجزء «المنزوع الواجهة» من العمارة. الرُّبع المتبقّي من الرّسم يتيح مع ذلك جرد جزءٍ من الرّصيف مغطّى بالنّفايات (جريدة قديمة، مُعَلّبة، ثلاثة أغلفة)، صندوق قمامة مكتظّ، دهليز مدخل فخمٌ فيما مضى، لكنّه بَالٍ، خمس شخصيات على النّوافذ : في الطّابق الثّاني، بين أصص الزّهور، رجل عجوز يدخّن غليونه و معه كلبه، في الطّابق الثّالث، طائر في قفص، وامرأة وطفلة صغيرة.

يبدو لي أنّه الصّيف. قد تكون السّاعة الثّامنة مساء (من الغريب أنْ لا يكون الأطفال قد ناموا). لم يكن التّلفزيون قد اختُرع بعد. لا يُشاهد كذلك أيُّ جهاز راديو. مالك العمارة هو دون شكّ السيّدة التي تحوك التريكو (لا توجد في الطّابق الأوّل، كما اعتقدت

ذلك أوّلاً، لكنّها، بالنّظر إلى دهليز المدخل، توجد في الطّابق السّفلي، وما كنت سمّيته الطّابق السّفلي هو في الواقع قبو : فليس للمنزل سوى طابقيْن) : لقد عرفت انقلاب الحظ فصارت مضطرّة، ليس فحسب لتحويل بيتها إلى شقق مفروشة، بل لأن تقسم إلى قسميْن أجمل حجرتيْن لديها.

وقد يتيح تفحصٌ أكثر تمعّناً للرّسم استخلاص تفاصيل رواية ضخمة : من الواضح، مثلاً، أنّنا نوجد في حقبة كانت الموضة فيها هي للشّعَر المُجعّد (ثلاث نساء يضعن مُجعّدات الشّعَر) ؛ السيّد الذي ينام على كنبته غير المريحة لا شكّ أنّه أستاذ : فهو صاحب المحفظة الجلديّة و على مكتبه يوجد ما يشبه كثيراً حزمة من الفروض ؛ السيّدة التي تشتغل هي والدة الفتاة الجالسة ومن المحتمل تماماً أنّ السيّد المرتفق على المدفأة، وكأسٌ في يده، والذي ينظر إلى المُتحرّك على نمط كالدر نظرة أقرب إلى الحيْرة سيكون صهرها مستقبَلاً ؛ أمّا جارها، الذي له أربعة أطفال وقطّ، فيبدو منكبّاً بضراوة على آلته الكاتبة كشخصٍ ينتظر منه النّاشر مخطوطه منذ ثلاثة إسابيع...

2

أشياء ينبغي، من وقت لآخر، القيام بها بمنهجيّة.

في العمارة حيث نسكن :

أنْ نذهب لزيارة الجيران ؛ أنْ ننظر إلى ما يوجد، مثلاً، على الجدار المشترك بيننا ؛ أن نتحقّق، أو نكذّب، التّشاكل الموقعي للمساكن. أن نرى كيف نستفيد من ذلك ؛

أنْ ندرك أنّ شيئاً قد يشبه الغُربة قد يأتي من واقع أنْ نسلك الدّرج ا بدل الدّرج ب، أو أن نصعد إلى الطّابق الخامس في حين أنّنا نسكن الثّاني ؛

أن نحاول أنْ نتخيّل، في الإطار ذاته للعمارة، أسس حياة جماعيّة (شاهدت، في بيت عتيق بالدّائرة الثّامنة عشرة [في باريس]، مرحاضاً كان مشتركاً لأربعة مساكن ؛ لم يكن مالك المنزل يرغب في أداء ثمن إنارة المرحاض المذكور، ولا واحد من المكترين الأربعة قد أراد أن يؤدّي عن الآخرين، ولا أن يقبل بعدّاد واحد

وفاتورة مقسومة على أربعة. كان المرحاض إذن مُضاءً بأربعة مصابيح منفصلة، كلّ واحد منها يُتحكَّم فيه من أحد المساكن الأربعة : إنّ مصباحاً وحيداً يظلّ يضيء طوال عشرة أعوام، ليلاً ونهاراً، كان بالطّبع سيكون أقلّ كلفة من تركيب واحد من هذه الدّارات المانعة).

في العمارات عموماً :

أن ننظر إليها ؛

أن نرفع رأسنا ؛

أن نبحث عن اسم المهندس المعماري، واسم المقاول، وتاريخ البناء ؛

أن نتساءل لماذا كثيراً ما يوجد مكتوباً «غاز في جميع الطّوابق» ؛

أن نحاول أن نتذكّر، في حال عمارة جديدة، ما كان قبلها ؛

إلخ.

الشّارع

1

العمارات واحدة بجنب الأخرى. مُتَراصِفة. من المقرّر أنْ تكون متراصفة، وإنّه لخطأ جسيم بالنّسبة لها إنْ لم تكن متراصفة : يُقال حينئذٍ إنّها داخلة في خطّ التّنظيم، وذلك يعني الحقّ في هدمها، من أجل إعادة بنائها في تراصف مع العمارات الأخرى.

التّراصف المتوازي لسلسلتيْن من العمارات يُحَدِّد ما يُسَمّى شارعاً : الشّارع فضاء محدودٌ، عموماً على ضلعيه الأطوليْن، بمساكن ؛ الشّارع هو ما يفصل المساكن عن بعضها، و أيضاً هو ما يسمح بالذّهاب من مسكن لآخر، إمّا بمُحَاذاة الشّارع، أو بعبوره. بالإضافة إلى ذلك، الشارع هو ما يسمح بتعيين المساكن بعلامات. توجد أنظمة مختلفة للتّعيين ؛ أكثرها انتشاراً، في أيّامنا هذه وتحت أجوائنا، يقوم على منح اسمٍ للشّارع وأرقام للمساكن : تسمية الشّوارع موضوعٌ معقّد للغاية، بل كثيراً ما يكون شائكاً، يمكن بصدده كتابة عدّة مؤلّفات ؛ أمّا التّرقيم فليس أبسط بكثير : تقرّر، أوّلاً، أنْ توضع أرقام زوجية على جانب وأرقام فردية على الجانب الآخر (لكن، كما تساءلتْ عن حقّ شخصيّة من شخصيات ريمون كونو في عمل Vol d'Icare [طيران إيكار] : « 13 مكرّر، هل هو رقم زوجي أم رقم فردي ؟»)، ثانياً، أنّه بالنظر إلى اتّجاه الشّارع، ستكون الأرقام الزّوجية على اليمين (والأرقام الفردية على اليسار) وثالثاً، أنّ الاتّجاه المذكور للشّارع سيكون، على العموم (لكن توجد كثير من الاستثناءات) مُحدّداً بموقع الشّارع المذكور بالنّسبة لمحور ثابت، وهو في الحالة هذه نهر السّين : الشّوارع الموازية للسّين مُرقّمة من عالية النّهر نحو سافلته، والشّوارع المتعامدة تنطلق من السّين مبتعدة عنه (هذه التّوضيحات تعني بالطّبع باريس ؛ يمكن الاعتقاد منطقياً أنّ حلولاً مماثلة قد جرى تصوّرها بالنسبة للمدن الأخرى).

على عكس العمارات التي يكاد يكون لها دائماً مالكٌ، فالشّوارع مبدئياً لا يمتلكها أحد. إنّها موزّعةٌ، بما يكفي من الإنصاف، بين منطقة مخصّصة للسّيارات، وتسمّى الطّريق

المعبّد، ومنطقتيْن، أضيق بالطّبع، تسمّيان الرّصيفين. عدد معيّن من الشّوارع مخصّصة بالكامل للرّاجلين، إمّا بصورة دائمة، وإمّا لبعض المناسبات الخاصّة. منطقتا الاتّصال بين الطّريق والرّصيفيْن تتيح لأصحاب السيّارات الذين لم يعودوا يرغبون في السّير أنْ يركنوا سيّاراتهم. وبما أنّ عدد السيّارات الرّاغبة في أنْ لا تسير أكبر بكثير من عدد الأماكن المُهيّأة، فقد حُدّتْ إمكانات الوقوف هذه إمّا، داخل بعض المناطق المسمّاة «مناطق زرقاء» بتحديد زمن الوقوف، وإمّا، بصورة أعمّ، بإقامة موقف مؤدّى عنه.

ليس من المعتاد كثيراً أنْ تكون أشجارٌ في الشّوارع. وإذا ما كانت، فتكون مُسَيَّجة. وبالمقابل، فإنّ أغلب الشّوارع مجهّزةٌ بتهْيئات مخصوصة مطابقة لخدمات مختلفة : وهكذا توجد أعمدة الإنارة التي تشتعل آلياً ما أنْ يبدأ ضوء النّهار في التّناقص بشكل واضح ؛ ومواقف يمكن للمستعملين أنْ ينتظروا بجوارها وصول الباصات أو سيّارات الأجرة ؛ ومخادع للهاتف، ومقاعد عموميّة ؛ وصناديق يمكن لسكّان المدينة أنْ يضعوا فيها رسائلهم التي تقوم مصلحة البريد بتجميعها في مواقيت ثابتة ؛ وآليات موقوتة مُعَدَّةٌ لاستقبال النّقود الضّرورية لوقوف السيّارات لمدة محدودة ؛ وسِلالٌ مخصّصة للورق المستعمل والنّفايات الأخرى، والتي يلقي عليها اضطرارياً عديد من الأشخاص، أثناء مرورهم، نظرة عابرة ؛ وأضواء المرور. توجد أيضاً لوحات الإشارات الطّرقية المشيرة، مثلاً، أنّه ينبغي الوقوف على هذا الجانب أو ذاك من الشّارع تبعاً لأنْ نكون أو لا نكون في النّصف الأوّل أو الثّاني من الشّهر (وهو ما يسمّى «الوقوف الأحادي الجانب المتعاقب»)، أو أنّ الصّمت إلزامي بالنّظر إلى قرب مستشفى، أو، أخيراً وعلى الخصوص، أنّ الشّارع وحيد الاتّجاه : وفعلاً، فإنّ توافد السيّارات هو من الوفرة بحيث سيكون السّير تقريباً مستحيلاً لو لم تُتّخذ، منذ بضع سنوات، في أغلب التجمّعات الحضرية، عادةُ إجبار سائقي السيّارات أنْ لا يسيروا إلاّ في اتّجاه وحيد، وذلك بالطّبع ما يضطرّهم أحياناً إلى التفافات طويلة.

في بعض ملتقيات الطّرق، المعتبرة خطيرة بشكل خاصّ، يكون التّواصل ما بين الرّصيف والطّريق، الحرّ عادة، ممنوعاً بواسطة قضبان حديدية موصولة بسلاسل ؛ وقضبان مماثلة، مغروسة في الرّصيفيْن نفسهما تستخدم أحياناً لمنع السيّارات من الوقوف فوق الرّصيفيْن، وهو ما تنحو إلى فعله لو لم تُمنع من ذلك. أخيراً، في بعض الظروف – استعراضات عسكرية، مرور رؤساء الدّول، إلخ. – يمكن لأجزاء كاملة من الطّريق أنْ تكون ممنوعة بواسطة حواجز معدنيّة متشابكٍ بعضها ببعض.

في بعض المواضع من الرّصيفيْن، تشير منحدرات على شكل قوس الدائرة، من المألوف تسميتها « سفناً»، إلى أنّ السيّارات يمكن ركنها داخل العمارات ذاتها وينبغي في كلّ وقت أنْ تُترك لها إمكانية الخروج ؛ وفي مواضع أخرى، تشير مربّعات صغيرة من الخزف مدمجة في حافةالرّصيف إلى أنّ هذا الجزء من الرصيف مخصّص لوقوف سيّارات الأجرة.

الصِّلة بين الطّريق والرّصيفيْن تحمل اسم المجرى : إنّها منطقة مائلة ميلاً خفيفاً جداً، بفضلها يمكن لمياه المطر أنْ تسيل إلى شبكة البواليع الموجودة تحت الشّارع، بدل أن تنبسط على مجموع عرض الشّارع، ممّا سيعرقل بشكل كبير سير السيّارات. طوال قرون عديدة، لم يكن سوى مجرى واحد وكان يوجد وسط الطّريق، لكن يُعتبر أنّ النّظام الحالي أكثر ملاءمة. وفي غياب ماء المطر، فإنّ صيانة الطّرقات والأرصفة يمكن تأمينها بفضل أنابيب لإيصال الماء مركّبة تقريباً في كلّ تقاطعات الشّوارع والتي تُفْتح بواسطة مفاتيح على شكل T يُزوَّدُ بها عمّال البلديّة المكلّفون بتنظيف الشّوارع.

من الممكن دائماً، مبدئياً، العبور من أحد جانبي الشّارع إلى الآخر، باستعمال ممرّات محمية لا ينبغي للسيّارات أنْ تجتازها إلاّ بأقصى الانتباه. هذه الممرّات المحمية يُشار إليها، إمّا بمجموعتيْن متوازيتيْن، متعامدتيْن مع محور الشّارع، من المسامير المعدنيّة، يبلغ قطر رأسها حوالي اثنا عشر سنتمتراً، ومن ثمّ اسم الممرّات المسمّرة المُعْطَى لهذه المناطق المحميّة، وإمّا بشرائط عريضة من الصّباغة البيضاء المنضّدة بشكل مائل على مجموع عرض الشّارع (يُقال عن الممرّات حينئذ إنّها مُجَسَّدَة). ويبدو أنّه لم تعد لنظام الممرّات المسمّرة أو المجسّدة الفعاليةُ التي كانت له دون شكّ في الماضي، وكثيراً ما يكون من الضّروري ازدواجه بنظام من أضواء المرور ذات ثلاثة ألوان (أحمر، وأصفر، وأخضر) التي، بتكاثرها، قد أفضت إلى إثارة مشاكل المُزَامَنة خارقة التّعقيد تعمل بعض أكبر كمبيوترات العالم وبعض العقول الرياضية المعتبرة الألمعَ في عصرنا على حلّها.

في أماكن مختلفة، تراقب كاميرات مُتحكَّم فيها عن بُعْد ما يجري : توجد واحدة على قمّة مجلس النوّاب، تماما تحت العلم المثلّث الألوان ؛ وأخرى، في ساحة إدمون روستان، على محور البولڤار سان ميشال ؛ وأخرى أيضاً في ألسيا، وساحة كليشي، والشّاتلي، وساحة الباستيل، إلخ.

2

رأيتُ أعميَيْن في شارع لينّي. كانا يمشيان متماسكيْن بالأذرع. كانت لهما عصوان طويلتان مَرِنتان للغاية. أحدهما كان امرأة في الخمسين، والآخر شابّ صغير السنّ جداً.

كانت المرأة تتلمّس بطرف عصاها جميع العوائق العموديّة التي تنتصب على طول الرّصيف، وكانت، مُرشِدةً عصا الشاب، تجعله يلمسها أيضاً مُخْبِرةً إيّاه، سريعاً جداً، ودون أنْ تخطىء أبداً، بأيّة عوائق يتعلّق الأمر : عمود إنارة، موقف باص، مخدع هاتف، سلّة مهملات، صندوق رسائل، لوحة إشارة طرقيّة (لم تستطع طبعاً تحديد ماذا كانت تشير إليه تلك اللّوحة)، ضوء أحمر...

3

أعمال تطبيقية

أنْ تُعَايِن الشّارع، من وقت لآخر، ربّما بشيءٍ من اهتمامٍ منهجيٍّ.

أنْ تثابر. أنْ تتمهّل.

أن تدوّن المكان : رصيف مقهى قرب ملتقى الطّرق باك سان-جيرمان

السّاعة : السّابعة مساء

التّاريخ : 15 ماي 1973

الطّقس : جميل هادىء

أنْ تدوّن ما تراه. ما يجرى ممّا يستأهل التّدوين. أنعرف رؤية ما يستأهل التّدوين؟ أيوجد شيء يثير انتباهنا؟

لا شيء يثير انتباهنا. لا نعرف أنْ نرى.

ينبغي فعل ذلك بتؤدة، بما يكاد يكون سذاجة. أن تجبر نفسك على كتابة ما لا أهمّية له، الأكثر بداهة، الأكثر ابتذالاً، الأكثر رتابة.

الشارع : أنْ تحاول وصف الشّارع، ممّاذا صُنِع، لماذا استُعْمِل. النّاس في الشّوارع. السيّارات. أيّ نوع من السيّارات؟ العمارات : تدوين أنّها أمْيَلُ إلى الرّفاه، أمْيَلُ إلى الغنى ؛ تمييز العمارات السّكنية عن المباني الرّسمية.

المحلاّت التّجارية. ماذا يُباع في المحلاّت؟ لا توجد متاجر تغذية. آه! بلى، توجد مخبزة. أنْ تتساءل أين يتسوّق سكّان الحيّ.

المقاهي. كم يوجد من مقهى؟ واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. لماذا اخترت هذا؟ لأنه معروف، لأنّه في الشّمس، لأنّه يبيع التّبغ. المحالّ التّجارية الأخرى : تحف أثرية، ملابس، هِي-فِي، إلخ. لا تقلْ، لا تكتب « إلخ. ». أن تجبر نفسك على استنفاد الموضوع، حتّى لو كان ذلك يبدو مضحكاً، أو تافهاً، أو بليداً. لم نر بعدُ شيئاً، لم نفعل سوى التعرّف على ما كنّا منذ زمن طويل قد تعرّفنا عليه.

أنْ تُلْزِمَ نفسك بأنْ ترى بسطحية أكبر.

أنْ تكشف إيقاعاً : عبور السيّارات : تصل السيّارات أكداساً لأنّها، في أعلى الشّارع أو أسفله، كانت متوقّفة في الضّوء الأحمر.

أنْ تعُدّ السيّارات.

أن تنظر إلى لوحات أرقام السيّارات. أن تميّز السيّارات المسجّلة في باريس عن الأخريات.

أنْ تلحظ غياب سيّارات الأجرة، تماماً حينما كان يبدو أنّ عدداً من الأشخاص كانوا ينتظرونها.

أنْ تقرأ ما هو مكتوب في الشّارع : أعمدة مُورِّيس [للصق الإعلانات]. أكشاك الصّحف، ملصقات، إشارات مرور، خربشات على جدران، بيانات ملقاة على الأرض، لافتات المحلاّت التّجارية.

جمال النّساء.

الموضة هي للكعب العالي جداً.

أنْ تفكّ رموز قطعة من المدينة، أنْ تستخلص منها بداهات : هُجَاسُ المِلكِيّة، مثلاً. أنْ تصف عدد العمليات التي يقوم بها سائق سيّارة حين يتوقّف فقط ليشتري مائة غرام من عجين الفواكه :

- التوقّف بواسطة عدد من الحركات
- إيقاف المحرّك
- نزع مفتاح التّشغيل، مطلقاً بذلك جهازاً أوّل مضاد للسّرقة
- الخروج من السيّارة

- رفع زجاج الباب الأمامي الأيسر
- إرتاجه
- التحقّق من أنّ الباب الخلفي الأيسر مُرْتَجٌ ؛ وإلاّ : فتحه
رفع المقبض من الدّاخل
صَفْقُ الباب
التحقّق من أنّه فعلاً مُرْتَجٌ.
- القيام بدورة حول السيّارة ؛ وإذا اقتضى الحال، التحقّق من أنّ الصّندوق الخلفي مغلقٌ بالمفتاح
- التحقّق من أنّ الباب الخلفي الأيمن مرتج ؛ (وإلاّ، إعادة مجموع العمليات المنجزة سلفاً على الباب الخلفي الأيسر) رفع زجاج الباب الأمامي الأيمن.
- إقفال الباب الأمامي الأيمن.
- إرتاجه.
- قبل الابتعاد، إلقاء نظرة دائرية كما لو كان ذلك للاطمئنان على أنّ السيّارة لا تزال هنا وأنْ لا أحد سيأتي ليأخذها.

أنْ تفكّ رموز قطعة من المدينة. مَدَاراتها : لماذا تذهب الأتوبيسات من هذا المكان إلى ذلك الآخر؟ من الذي يختار خطّ السّير، ووَفْقَ ماذا؟ أن تتذكّر أنّ مسير أتوبيس باريسي داخل المدينة يعيّنه عددٌ من رقميْن أوّلهما يصف نهاية الخطّ المركزية والثّاني نهاية الخطّ الخارجية. أنْ تعثر على أمثلة، أن تعثر على استثناءات : جميع الأتوبيسات التي يبدأ رقمها بالعدد 2 تنطلق من محطّة القطار سان لازار، وبالعدد 3 من محطّة الشّرق ؛ جميع الأتوبيسات التي ينتهي رقمها بـ 2 تفضي إجمالاً إلى الدّائرة السّادسة عشرة أو إلى بولوني.
(من قبل، كانت حروفاً : l'S، العزيز على كونو، صار هو الرقم 84 ؛ أنْ تحنّ لذكرى الأتوبيسات ذات المنصّة، وأشكال التّذاكر، والقابض بآلته الصّغيرة المعلّقة في حزامه...)

النّاس في الشّارع : من أين يجيئون؟ أين يروحون؟ من يكونون؟

ناسٌ مستعجلون. ناس متمهّلون. رُزَمٌ. ناس حذرون أخذوا معاطفهم ضدّ المطر. كلاب : هي الحيوانات الوحيدة المرئية. لا تُرَى طيور ــ معلوم مع ذلك أنّه توجد طيور ــ ولا تُسمَع كذلك. يمكن لمح قطّ وهو يتسلّل تحت سيّارة، لكنّ هذا لا يحدث.

لا يحدث شيء، في الحاصل.

أنْ تحاول تصنيف النّاس : أولئك الذين من الحيّ وأولئك الذين ليسوا من الحيّ. لا يبدو أنّ هناك سياحاً. ليست الفترة ملائمة، فضلاً عن أنّ الحيّ ليس سياحياً بصورة خاصّة. ما طرائف الحيّ ؟ فندق سَلْمُون برنار؟ كنيسة القدّيس توما الأكويني؟ رقم 5 من شارع سبستيان-بوتّان؟

يمرّ الوقت. تشرب كأسك الكبير من البيرة. تنتظر.

أنْ تلحظ أنّ الأشجار بعيدة (هناك، على البولڤار سان-جيرمان وعلى البولڤار راسپيل)، أنّه لا توجد سينمات ولا مسارح، أنّ لا تُرى أيّ ورشة ظاهرة، أنّ أغلب المنازل يبدو أنّها قد امتثلت لتعليمات إصلاح الواجهات.

كلب، من فصيلة نادرة (سلوقي أفغاني؟ سلوگي؟)

لانْدْ-روڤر كأنّها مجهزّة لاختراق الصّحراء (رغماً عنّا، لا نلحظ سوى الغريب، والخاص، والاستثنائي بشكل بائس : العكس هو ما ينبغي فعله).

أنْ تُوَاصل.
حتّى يصير المكان غير مُتَوَقَّعٍ.
حتّى الإحساس، أثناء لحظة وجيزة جدّاً، بأنّك في مدينة غريبة، أو، أفضل من ذلك، حتّى لا تعود تفهم ما يجري أو ما لا يجري، أنْ يصير المكان بكامله غريباً، أنْ لا تعود تعرف أنّ هذا اسمه مدينة، وشارع، وعمارات، وأرصفة...

أنْ تجعل الأمطار طوفانيّة، أنْ تكسّر كلّ شيء، أنْ تُنْبِتَ العشب، أن تستبدل بالنّاس أبقاراً، أن يظهر لك، عند تقاطع شارع الباك والبولڤار سان-جرمان، متجاوزاً سطوح العمارات بمائة متر، كنگ-كونگ، أو فأرة تكس آڤري المُقَوّاة !

أو أيضاً : أن تبذل وسعك في أن تتمثّل، بأكبر دقّة ممكنة، تحت شبكة الشّوارع، تشابك المجاري، ومرور خطوط المترو، والتّكاثر الخفيّ والتّحتأرضي للتّوصيلات (الكهرباء، الغاز، خطوط الهاتف، توصيلات الماء، شبكة الهواء المضغوط) التي بدونها لن تكون أيّ حياة ممكنةً على السّطح.

وتحت ذلك، تماماً تحته، أنْ تعيد بعث العصر الجيولوجي الفَجْريّ : الحجر الجيري، حجر المارْن وحجر البناء، الجبس، الحجر الكلسي لسانت -أوان، رمال بوشان، الكلس الخشن، رمال وليِنيت سواسّوني، الصّلصال التّشكيلي، الطّبشور.

4

أو :

مسوّدة رسالة

أفكّر فيك، كثيراً

أحياناً أدخل إلى مقهى، أجلس قرب الباب، أطلب قهوة

أضع على المنضدة من الرّخام الاصطناعي ذات القائمة الواحدة علبة سجائري، وصندوق الوقيد، وحزمة من الورق، وقلم الفيتر.

أحرِّك طويلاً الملعقة الصّغيرة في فنجان القهوة (مع أنّني لا أضع سكّراً في قهوتي، أشربها وأنا أذيب قطعة سكّر في فمي، مثل أهل الشّمال، مثل الرّوس والپولونيين حين يشربون الشّاي).

أتظاهر بأنّني منشغل، وأنّني أفكّر، كما لو كان عليّ أنْ أتّخذ قراراً.

في أعلى اليمين من الورقة، أدوِّن التّاريخ، أحياناً المكان، أحياناً السّاعة، أتظاهر بكتابة رسالة.

أكتب بتمهّل، بتمهّل شديد، بأقصى ما يمكن من التّمهّل، أخطّ، أرسم كلّ حرف، كلّ شكلة، أتحقّق من علامات التّرقيم.

أنظر بتمعّن لملصق صغير، لتسعيرة المثلّجات وقشدة المستَير، لزخرفة حديدية، لستارة، لمنفضة صفراء، مسدّسة الأضلاع (الواقع أنّها مثلّث متساوي الأضلاع، جُعلتْ في زواياه المقطوعة المنخفضات على شكل نصف دائرة حيث يمكن وضع السّجائر).

في الخارج هناك قليل من الشّمس.

المقهى شبه فارغ.

اثنان من مبيّضي الواجهات يشربان كأساً من الرّوم على الكونطوار، صاحب المقهى يغفو وراء صندوق خزينته، الخادمة تنظّف آلـة تقطير القهوة.

أفكّر فيك

تمشين في الشّارع، إنّه الشّتاء، رفعتِ ياقة معطفك الرّمادي، أنت باسمة وبعيدة

(...)

5

الأماكن

(نقاط حول عملٍ طور الإنجاز).

فـي 1969، اختـرت، في باريس، 12 مكاناً (شـوارع، ساحات، ملتقيات طرق، ممرّات)، إمّا كنت قد عشت فيها، وإما تربطني بها ذكريات خاصّة.

شرعت في القيـام، كلّ شهـر، بوصف اثنين من هذه الأماكن. أحد هذيْن الوصفين يُنْجَزُ في المكان ذاته ويتغيّا أنْ يكون محايداً أقصى ما يمكن : أحـاول، وأنا جالس في مقهى، أو سـائراً في الشّـارع، مـفكّرة وقلم في اليـد، أنْ أصف البيـوت، والمحـلاّت، والنّاس الذين أصادفهم، الملصقـات وبصفة عامّة، جميع التّفاصيل التي تلفت نظري. والوصف الآخر يُنْجَزُ في موضع مـختلف عن المكان : أحـاول حينئـذ أن أصف المكان من الذّاكرة، وأن أستحضر بخصوصه كلّ الذكريات التي تجيئني، إمّا أحداثاً جرت به، وإمّا ناساً صادفتهم فيه. لمّا ينتهي هذان الوصفـان، أدسّهـما في ظرف أختمـه بالشّـمع، وفي عـدة مرّات، كـان يرافقني إلى الأماكن التي كنت أصفها صديق (أو صديقة) مصوّر يقوم، إمّا بحرّية أو وفق تعليماتي، بأخذ صوَر أدسّهـا، دون أن أنظر إليها (باستثناء واحدة) في الظّرفين المطابقيْن ؛ حـصل لي أيضاً أنْ أدسّ في هذيْن الظّرفيْن عناصر مختلفة كفيلة بأن تكون لها فيمـا بعد وظيفة شهـادات، مثلاً تذاكر مترو، أو بطائق استهلاك، أو تذاكر سينما، أو بيانات، إلخ.

أكرّر كلّ سنة عمليات الوصف هذه مراعياً، بفضل لوغارتم أشرت إليه من قبل (مضاعف التّربيع اللاّتيني المتعامد، ويكون هذا من منزل 12)، أوّلاً، أنْ أصف كلّ واحد من هذه الأمكنة في شهر مختلف من السّنة، وثانياً، أن لا أصف أبداً في نفس الشّهر نفس المكانيْن.

هذا المشروع، الذي يُذكّر بعض الشيء بـ «قنابل الزّمن»، سيستمرّ إذن اثني عشر عاماً، حتّى تكون جميع الأمكنة قد وُصِفت مرّتيْن اثنتي عشرة مرّة. ولمّا كنت، في العام الماضي، زائد الانشغال بتصوير شريط «Un homme qui dort» (الذي تظهر فيه، فضلاً عن ذلك، معظم هذه الأمكنة)، فإنّي في الواقع قد أغفلت السّنة 73 وإذن فقط في 1981 سيكون بحوزتي (إنْ لم يحصل لي تأخيرآخر...) 288 نصّاً صادرة عن هذه التّجربة. سأعلم حينئذ إنْ كانت ذات قيمة : ما أنتظره منها، بالفعل، ليس شيئاً آخر سوى أثر اهتراء مثلّث : اهتراء الأماكن نفسها، واهتراء ذكرياتي، واهتراء كتابتي.

الحيّ

1

الحيّ. ما الحيُّ؟ أنت تسكن في الحيّ؟ أنت من الحيّ؟ أنت بدّلت الحيّ؟ أنت في أيّ حيّ؟

له مظهر الشيء عديم الشّكـل، الحيّ : أشبه بقرية أو، بكلام أدقّ، رُبْع دائرة، القطعة الصّغيرة من المدينة التّابعة لمركز شرطة...

بعمـومية أكـثر : الجزء من المدينة حيث نتحرّك بسـهولة راجلين أو، لنقول الشيء نفسه على شكل تحصيل حـاصل، القسم من المدينة الذي لا حاجة بنا للذهاب إليـه، لأنّنا بالضبط نوجد فيه. هذا يبدو بديهياً ؛ لكن لابدّ من توضيح أنّه، بالنّسبة لمعظم سكّان مدينة، يكون من نتيجة هذا أنّ الحيّ هو أيضاً الجزء من المدينة حيث لا نعمل : نطلق اسم الحيّ على المكان حيث نقيم لا على المكان حيث نعـمل : وأماكن الإقامـة وأماكن العمل لا تكاد تـتطابق أبداً : هذه أيضاً بداهة، لكن نتائجها لا تحصى.

حياة الحيّ

هذه كلمة كبيرة جدّا.

نعم، هناك الجـيران، هناك ناس الحيّ، التجّـار، المقشـدة، حانوت لوازم البـيت، دكان التّبغ الذي يظل مفتـوحاً الأحد، الصّيدلية، مركـز البريد، المقهى الذي، إنْ لم تكن من روّاده، فأنت على الأقلّ زبون منتظم (تصافح صاحب المقهى أو الخادمة).

طبعاً، يمكن العناية بهذه العادات، أن تذهـب دائماً عند نفس الجزّار، أن تترك حزماتك عند البقّـال، أن تفتح حسـاباً عند العطّار، أن تدعو الصيـدلانيّة باسمـها الشّخصي، أن تعهد بقطّك إلى بائعة الصّحف، لكن مـهما حاولت، فهذا لا يصنع حـياة، لا يمكن حتّى أن يعطي إيهاماً بأنّه حياة : سيخلق فضاء مألوفاً، سيُوجِد مـساراً (أن تخرج من بيتك، أن تذهب لشراء

صحيفة المساء، علبة سجائر، علبة مسحوق صابون، كيلو من حَبّ الملوك، إلخ.)، ذريعة لبعض مصافحات رخوة صباح الخير مدام شاميساك، صباح الخير مسيو فرنان، صباح الخير مدموازيل جانّ)، لكنّ هذا لن يكون سوى انتظام معسول للضّرورة، طريقة لتلبيس الصبغة التّجارية.

طبعاً يمكن تأسيس جوق موسيقي، أو ممارسة المسرح في الشّارع. أن تنشّط الحيّ، كما يُقال. أنْ تجعل ناس شارع أو عدّة شوارع يتلاحمون بشيء آخر غير تقارب بسيط، بل بمُتطلّب أو نضال.

موت الحيّ

هذه كلمة كبيرة جداً كذلك.

(فضلاً عن أنّ هناك أشياء أخرى كثيرة تموت : المدن، الأرياف، إلخ).

ما آسف عليه، على الخصوص، هو سينما الحيّ، بإعلاناتها البشعة في نظر صبّاغ الحيّ.

2

من كلّ ما سبق، يمكنني استنتاج خلاصة، غير مُرْضية والحقّ يقال، بأنّه ليست عندي سوى فكرة تقريبية جداً عن ما هو الحيّ. صحيح أنّني كثيراً ما بدّلتُ الحيّ، خلال هذه الأعوام الأخيرة : لم يكن لديّ الوقت للتعوّد عليه.

لا استعمل حيِّي كثيراً. المصادفة وحدها هي التي جعلت بعضاً من أصدقائي يعيش مثلي في نفس الحيّ. وبالنّظر إلى مسكني، فإنّ مراكز اهتمامي الرّئيسية هي بالأحرى خارجة عن الحيّ. لا شيء عندي ضدّ واقع أنْ نتحرّك، بل بالعكس.

لماذا لا نفضّل التشتُّت؟ بدل العيش في مكان وحيد، في بحث حقيقيّ عن التجمّع فيه، لم لا يكون لنا خمس أو ستّ غرف متناثرة في باريس؟ سأذهب للنّوم في دنفير، وأكتب في ساحة ڤولتير، وأستمع إلى الموسيقى في ساحة كليشي، وأمارس الحبّ في بوّابة الصّفصاف، وآكل في شارع لاطومب-إيسوّار، وأقرأ قرب حديقة مونصو، إلخ. هل هذا أكثر غباءً، في نهاية الأمر، من جعل كلّ تجّار الأثاث في ضاحية سان-أنطوان، وكلّ تجّار المصنوعات الزّجاجية في شارع الفردوس، وكلّ الخيّاطين في شارع لوسنتيي، وكلّ اليهود في شارع ديروزيي، وكلّ الطّلبة في الحيّ اللاّتيني، وكلّ النّاشرين في سان-سيلبيس، وكلّ الأطبّاء في هارلي ستريت، وكلّ الزّنوج في هارلم؟

المدينـة

1

سطوح باريس، المستلقية على الظّهر، وأقدامها الصّغيرة في الهواء
ريمون كونو

عدم إفراط التسرّع في العثور على تعريف للمدينة ؛ ذلك شيء ضخم جدّاً، وكلّ حظوظ الخطأ متوافرة.

قبل كلّ شيء، القيام بجرد لما نراه. إحصاء ما نحن متيقّنون منه. إقامة تمايزات بسيطة : بين ما هو مدينة وما ليس بمدينة.

الاهتمام بما يفصِل المدينة عن ما ليس بمدينة. النظر في ما يحصل حين تنتهي المدينة. مثلاً (كنت قد تناولت هذا الموضوع فيما يخصّ الشّوارع)، يقوم منهج معصوم إطلاقاً من الخطأ لمعرفة ما إذا كنّا نوجد في باريس أو خارج باريس على النّظر إلى أرقام الأتوبيسات : إنْ كان لها رقمان، فنحن في باريس، وإنْ كانت لها ثلاثة أرقام، فنحن خارج باريس (للأسف ليس ذلك بهذه الدّرجة من العصمة؛ لكن مبدئياً، ينبغي أنْ يكون ذلك كذلك).

الاعتراف بأنّ الضّواحي لديها اتّجاه قويّ لئلاّ تظلّ ضواحي.

أن نلاحظ جيّداً أنّ المدينة لم تكن دائماً كما كانت. أن نتذكّر، مثلاً، أنّ أوتاي كانت لزمن طويل في الرّيف ؛ وحتّى أواسط القرن التّاسع عشر، لمّا يرى الأطبّاء أنّ طفلاً كان مفرط الشّحوب، كانوا يوصون الوالديْن بالذّهاب لقضاء بضعة أيّام في أوتاي لاستنشاق هواء الرّيف الجيّد (ولا تزال توجد في أوتاي مقشدة تصرّ على أنْ تُسمّى مزرعة أوتاي).

أن نتذكّر كذلك أنّ قوس النّصر قد شُيِّد في الرّيف (لم يكن حقّاً الرّيف، كان بالأحرى ما يعادل حديقة غابة بولونْي، لكن، على أيّ حال، لم يكن حقّاً المدينة).

أن نتذكّر كذلك أنّ سان دوني، بانْيولي، أبيرڤيلي، هي مدنٌ أكثر أهمّية من پواتْي، أو آنسي أو سان-نازير.

أنْ نتذكّر أنّ كلّ ما يُسمّى «ضاحية» كان يوجد خارج المدينة (ضاحية سان-أنطوان، ضاحية سان-دوني، ضاحية سان-جيرمان، ضاحية سان أُنوري).

أن نتذكّر أنّه إذا كان يُقال سان-جيرمان-دي-پري، فذلك لأنّه كانت توجد مروج (des prés).

أن نتذكّر أن «بولڤار» هو في الأصل متنزّهٌ مغروس بالأشجار يحيط بالمدينة ويحتلّ عادة الفضاء حيث كانت أسوار قديمة.

أنْ نتذكّر، في الواقع، أنّها كانت مُحَصَّنَةً.

2

الرّيح تهبّ من البحر : روائح المدن الكريهة تُساق نحو الشّرق في أوروبا، ونحو الغرب في أمريكا. ولهذا السّبب كانت الأحياء الرّاقية توجد في غرب باريس (الدّائرة السّادسة عشرة، نُويي، سان-كلو، إلخ.) وفي لندن (الوِسْت إنْد) وتوجد في الشّرق في نيويورك (إيسْت سايد).

3

مدينةٌ : حجر، إسمنت، أسفلت. مجاهيل، معالم، مؤسّسات.

مدن عملاقة. مدن أخطبوطيّة. شوارع رئيسيّة. حشود.

قرية نمل؟

ما قلب مدينة؟ روح مدينة؟ لماذا يُقال إنّ مدينة جميلة أو إنّ مدينة قبيحة؟ ما الجميل وما القبيح في مدينة؟ كيف تُعْرَفُ مدينة؟ كيف يعرف الإنسان مدينته؟

منهج : ينبغي إمّا الامتناع من الحديث عن المدينة، من الحديث على المدينة، وإمّا إجبار النّفس على الحديث عنها بأبسط ما يكون، الحديث عنها بديهياً، مألوفياً. طرد كلّ فكرة مسبقة. الكف عن التّفكير بمصطلحات جاهزة، تناسي ما قاله المعماريون وعلماء الاجتماع.

شيء مرعب في فكرة المدينة ذاتها، يتولّد انطباع بأنّه لا يمكن سوى التشبّث بصور مأساوية أو يائسة : متروپوليس، الكون المعدني، العالم المتحجّر، وأنّه لا يمكن سوى مراكمة لا تهدأ لأسئلة بدون جواب.

ليس بمقدورنا أبداً تفسير أو تبرير المدينة. المدينة هنا. هي فضاؤنا وليس لنا من فضاء آخر. وُلِدْنا في مدن. كبرنا في مدن. في المدن نتنفّس. لمّا نركب القطار، فذلك لنذهب من مدينة لمدينة أخرى. لا شيء لاإنساني في المدينة، إلاّ أنْ تكون إنسانيتنا نفسها.

4

مدينتي

أسكن باريس. إنّها عاصمة فرنسا. وفي العهد الذي كانت فرنسا تُسمّى فيه غَالِيَا، كانت باريس تُسمّى لوتيسيا.

باريس، مثل كثير من مدن أخرى، قد بُنِيَتْ في الجوار المباشر لسبع رَوَابٍ. هي : رابية ڤاليريان، مونمارتر، مونپارناس، مونسوري، رابية شايو، لي بيتْ-شومون ولي بيتْ-أو-كايْ، جبل سانت-جنڤْييف، إلخ.

لا أعرف طبعاً جميع شوارع باريس. لكن لديّ دائماً فكرة عن الموضع الذي توجد به. حتّى لو أردتُ ذلك، سيكون من العسير عليّ أنْ أضلّ طريقي في باريس. بحوزتي عديد من نقاط التعرّف. أعرف دائما تقريباً في أيّ اتّجاه عليّ أنْ آخذ المترو. معرفتي لابأس بها لخطّ سير الأتوبيسات ؛ أعرف أنْ أشرح لسائق تاكسي المسار الذي أودّ أن أسلكه. اسم الشوّارع ليس دائماً تقريباً غريباً عنّي، ومميِّزات الأحياء مألوفة لي ؛ أتعرّف دون عناء على الكنائس والمعالم الأخرى، أعرف أين محطّات القطار. أماكن عديدة ترتبط بذكريات متميّزة : إنّها بيوت عاش فيها سالفاً أصدقاء غابوا عن نظري، أو هو مقهى لعبتُ فيه ستّ ساعات متوالية بالبليار الكهربائي (برَهْنٍ أوّلي كان قطعة عشرين سنتيم واحدة)، أو هو الحديقة الصّغيرة التي قرأت فيها رواية **الجلد المسحور** لبلزاك وأنا أراقب لعب الصغيرة ابنة أختي.

أحبّ التمشّي في باريس. أحياناً طوال ما بعد الظهر بأكمله، دون هدف واضح، ليس كما اتّفق، ولا دون جدوى، بل محاولاً الاستسلام للتيّار. أحياناً بركوب أوّل أوتوبيس

يتوقّف (لم يعد ممكناً ركوب الأوتوبيس «على الطّاير»). أو بإعداد دقيق، منهجيٌّ لخطّ سيْر. لو كان لديّ وقت، لكنت أودّ تصوّر وحلّ مسائل مماثلة لمسألة قناطر كُونِگسْبِرگ، أو مثلاً، العثور على مسار يخترق باريس من أدناها إلى أقصاها ولا يسلك إلاّ الشّوارع التي تبدأ بالحرف C.

أعشق مدينتي، لكنّي لا أستطيع أنْ أقول بالضبط ما أعشقه فيها. لا أعتقد أنْ تكون الرّائحة. وأنا بالغ التعوّد على المعالم كي تكون عندي رغبة لمشاهدتها. أحبّ بعض الأضواء، بعض الجسور، أرصفة مقاهي. أحبّ كثيراً أنْ أجتاز بمكان لم أره منذ زمن طويل.

5

مدن أجنبيّة

تعرف الذّهاب من محطة القطار، أو من air terminal [نقطة الوصول في المطار] إلى فندقك. تتمنّى أن لا يكون بعيداً جداً. تودّ لو تكون في وسط المدينة. تدرس بإمعان خريطة المدينة. تتبيّن فيها المتاحف، والحدائق، والأماكن التي حثّوك بقوّة على الذّهاب لرؤيتها.

تذهب لتشاهد اللّوحات والكنائس. كم تود أن تتفسّح، أن تهيم، لكنّك لا تجرؤ ؛ لا تعرف كيف تنساق مع التيّار، تخشى أن تتيه. بل إنّك لا تمشي في الحقيقة، إنّك تذرع. لا تعرف جيّداً ماذا ينبغي أنْ تشاهد. يكاد يستبدّ بك التأثّر حين تصادف مكتب الخطوط الجويّة الفرنسيّة، وعلى حافة الدّمع إذا أبصرت صحيفة Le Monde في كشك للصحف. لا مكان يسمح لك بربطه بذكرى، بإحساس، بوجه. تتبيّن قاعات للشاي، كافتيريات، حانات-حليب، خمّارات، مطاعم. تمرّ أمام تمثال. إنّه تمثال لودفيش سپانكرفل دي نومناتوري، صانع الجعّة الشّهير. تنظر باهتمام إلى مجموعة كاملة من مفاتيح أنجليزيّة (عندك ساعتان تضيعهما فتتجوّل ساعتيْن ؛ لماذا ستكون منجذباً بشكل خاصّ لهذا أو ذاك؟ فضاءٌ محايد، لم يتمّ احتلاله بعد، فاقدٌ عملياً لنقاط الاستدلال : لا تعرف كم يلزم من الوقت للذّهاب من مكان لآخر ؛ والنتيجة أنّك دائماً متقدّم على الموعد بشكل فظيع).

قد يكفي يومان كي تبدأ في التأقلم. وفي اليوم الذي تكتشف فيه أنّ تمثال لودفيش سپانكرفل دي نومناتوري (صانع الجعّة الشّهير) لا يوجد إلاّ على بعد ثلاث دقائق من فندقك

(في نهاية شارع الأمير أدلبرت) في حين أنّك كنت تقضي نصف ساعة بالتّمام لتذهب إليه، تبدأ في امتلاك المدينة. هذا لا يعني أنّك قد بدأت تسكنها.

كثيرا ما نحتفظ من هذه المدن التي لم نكد نلمسها بذكرى سحر غامض : ذكرى تردّدنا ذاتها، خطواتنا الحائرة، نظرتنا التي لا تعرف نحو ماذا تتوجّه والتي كان يكفيها القليل جدّاً لتنفعل : شارع يكاد يكون خالياً مغروس بأشجار عظيمة من الدُّلب (هل كانت من الدّلب؟) في بلغراد، واجهة من الخزف في ساربروك، المنحدرات في شوارع إدمبورغ، سعة نهر الرّاين في بال، والحبل - الاسم الدقيق قد يكون هو المِعبَر- وهو يقود المُعَدِّية التي تعبره...

6

عن السياحة

أمّا عن مشاهدة المدينة، فلم يكن يفكّر فيها مجرّد تفكير، إذْ كان من هذا النّوع من الأنجليز الذين يزورون بواسطة خدمهم البلدان التي يجتازونها.

جول فيرن
(«الطّواف حول العالم في ثمانين يوماً»)

بدلاً من أنْ تزور لندن، تبقى في بيتك، في ركن مدفأتك، وتقرأ المعلومات الفريدة من نوعها التي يقدّمها الدّليل السياحي بيدكر (طبعة 1907) :

الموسم (season)، أي شهور ماي، ويونيه ويوليه، هي الفترة الأنسب لزيارة لندن ؛ حيث ينعقد فيها البرلمان، وحيث المجتمع الرّاقي يقيم في المدينة، وحيث الممثلون الأوّلون يشغلون خشبة المسارح الكبرى وحيث المعارض الفنّية في أوج تألّقها. وسائر البلد يمكن زيارتها طوال السّنة، باستثناء الجبال.

...إذا لم تعثر على شرطي في الجِوار، استق المعلومات في متجر. لا تلجأ إلى مجهول إلاّ في حال الضّرورة القصوى، ولا تردّ على أيّ سؤال من أحد المارّة، خصوصا بالفرنسيّة، لأنّ هذا السّؤال هو على الأرجح تمهيد لسرقة أو احتيال. وعلى الغريب فضلاً عن ذلك أن يكون باستمرار محترساً وعلى الخصوص الانتباه لكيس نقوده وساعته. وتذكّر هذه الوصيّة حين ركوبه القطار أوعربة الأومنبوس، وحين نزوله، وبالجملة، في كلّ مكان به جمهور. ولابدّ من ملاحظة أنّه من العادة، بالنّسبة للرّاجلين، الالتزام بالجانب الأيمن في الشّوارع المطروقة. كذلك، في المساء، تجنّب الأحياء الفقيرة والشّوارع المنعزلة.

سكّك حديد المترو (...) طرق سير هامّة بالنّسبة للجولات الطّويلة في لندن. إنّها تمرّ في الأغلب الأعمّ تحت الأرض، على عمق قليل، داخل أنفاق أو خنادق محاطة بأسوار عالية (...) وتسير القطارات على الحزام الدّاخلي من السّاعة الخامسة والنّصف صباحاًحتّى حوالي منتصف اللّيل (...) تؤخذ تذكرة (ticket) من شبّاك التّذاكر (booking-office) ويتمّ النّزول إلى السكّة. في الرّدهة الأولى، يعيّن لك مراقب من أيّ جهة (plat-form) ينبغي الركوب. الـ O الكبير على التّذاكر يعني «outer» أي السكّة الخارجيّة، والـ I الكبير «inner»، أي الدّاخلية. وتخبر إشارة باتّجاه القطار القادم، واسم المحطّة الأخيرة التي يبلغها القطار مُشَارٌ إليها بحروف كبيرة على مقدّم القاطرة. ويعلن السّائقون عن المحطّات، التي تكون أسماؤها فضلاً عن ذلك معروضة على لافتات وعلى مساند مقاعد الرّصيف. التوقّفات قصيرة جدّاً : لابدّ من الإسراع.

الأطبّاء. نوصي بالدكاترة : ل. بُتراس، طبيب السّفارة الفرنسيّة والمستشفى الفرنسي (...)؛ هـ. دي ميريك (جرّاح) (...)؛ هـ. دردينّ (...) ؛ ج. برانوف، طبيب المستشفى الفرنسي (...)؛ نومانّ، طبيب المستشفى الإيطالي (...) أطبّاء الأسنان : أ. أ. ـولدسميث (امريكي) (...) هـ. ل. كوفّن (امريكي) (...)؛ يَبيروَينت (امريكي)، إلخ. الصيدليات (لا توجد صيدليّة فرنسيّة)...

استعمال الزّمن : لا تكاد يكفي أسبوعان، حتّى للمسافر الذي لا يعرف الكلل، ويكتفي بنظرة سطحيّة، ليُكوِّن فكرة على شيء من الوضوح عن لندن ونواحيها. وإنّ توزيعاً منهجياً للوقت سيسهّل كثيراً هذه المهمّة (...) يمكن، في الصّباح وبعد الظّهر، الذّهاب لمشاهدة الكنائس، التي يكون معظمها مفتوحاً طوال النّهار، والتجوّل في المنتزهات، وحدائق النّبات والحيوان. وبعد الظهر، من الخامسة حتّى السّابعة قبل العشاء، يمكن القيام بجولة في رجنت ستريت أو هايد بارك، المزدحمة دائماً بجمهور حاشد، وفرسان متألّقين وعربات بعدد وفير. وإذا كنت في جوار جسر لندن، يمكنك الاستفادة من كلّ لحظة متوافرة لمشاهدة الميناء ونواحيه، والسّفن الكبيرة التي تصل أو تنطلق، والحركة الهائلة على الأرصفة. ونوصي على الخصوص للاستمتاع بهذا المشهد العظيم والفريد من نوعه في العالم، بجولة في كريفسند.

7

تمارين

أنْ تصف العمليات التي تنجزها حين تركب المترو بنفس دقّة تفاصيل دليل بيدكر بالنّسبة لمترو لندن في 1907.

أن تعيد التّفكير في بعض الاقتراحات التي قام بها السرياليون لتجميل المدينة :

المسلّة : تدويرها ووضع ريشة من الفولاذ بحجمها على قمّتها

برج سان-جاك : إحناؤه قليلاً

أسدّ بلفور : جعله يقضم عظماً وإدارته نحو الغرب

البانتيون : قطعه عمودياً وإبعاد النّصفيْن مسافة 50 سنتمتراً

أن تحاول أن تُقدّر، بالاستعانة بالخرائط والتّصاميم الملائمة، خطّ سيْر يتيح ركوب جميع أتوبيسات العاصمة

أنْ تحاول أنْ تتخيّل ماذا ستصير باريس :

باريس تصير حديقة الشتاء ؛ ـ تعاريش الفاكهة على البولفار. السيّن مُصفّى وساخن، ـ غزارة الأحجار الكريمة الاصطناعية، ـ إسراف التّمويه بالذّهب، ـ إنارة المنازل ـ يُختزَن النّور، لأنّه توجد أجسام لها هذه الخاصيّة، كالسكّر، ولحم بعض الرّخويات وفوسفور بولونيا. وسيكون ملزوماً دهن واجهات المنازل بالمادّة الفوسفورية، وإشعاعها سيضيء الشوارع.

گوستاف فلوبير

(مسوّدات بوڤار وپيكيشي

التّصميم النّهائي، Pléiade,II,986)

الرّيف

1

ليس عندي شيء كثير أقوله عن الأرياف : الأرياف ليست موجودة، إنّها وهم.

الرّيف، بالنسبة لمعظم من هم مثلي، هو فضاء للمتعة يحيط بإقامتهم الثّانوية، ويجاور جزءاً من الطرق السيّارة التي يسلكونها الجمعة مساء حينما يذهبون إليها، والتي، ما بعد ظهيرة الأحد، إنْ كان لهم شيء من الشّجاعة، يجولون فيها بعض الأمتار قبل العودة إلى المدينة حيث، طوال سائر الأسبوع، يجعلون من أنفسهم دعاة العودة إلى الطّبيعة.

مثل كلّ الناس، مع ذلك، كنت عدّة مرّات في الرّيف (المرّة الأخيرة، أتذكّر ذلك جيّداً، كانت في فبراير 1973 ؛ كانت البرودة شديدة). فضلاً عن هذا، أنا أحبّ الرّيف (أحبّ كذلك المدينة، قلت هذا من قبل، فأنا أرضى باليسير) : أحبّ أن أكون في الرّيف : نأكل خبز الرّيف، نتنفّس أفضل، نشاهد أحياناً حيوانات لسنا معتادين عملياً على رؤيتها في المدن، نوقد النّار في الموقد، نلعب السّكرابل أو ألعاباً جماعية صغيرة أخرى. وينبغي الاعتراف بأنّه كثيراً ما يكون لنا من الفسحة في المكان أكثر ممّا في المدينة، وتقريباً نفس القدر من وسائل الرّاحة، وأحياناً نفس القدر من الهدوء. لكن لا شيء من كلّ هذا يبدو لي كافياً لتبرير اختلاف ملائم.

الرّيف بلد أجنبيّ. ما كان ينبغي لذلك أنْ يكون، غير أنّ هذا هو الكائن ؛ كان يمكن أنْ لا يكون ذلك، لكن ذلك كان كذلك وسيكون كذلك بعد الآن : لقد فات الأوان لتغيير أيّ شيء من ذلك.

أنا إنسان المدن ؛ وُلدتُ، وكبرت، وعشت في المدن. عاداتي، وإيقاعاتي ومعجمي هي عادات، وإيقاعات ومعجم إنسان المدن. المدينة لي. أنا فيها في بيتي : الأسفلت، الإسمنت، الأسْيِجة، شبكة الشّوارع، رمادية الواجهات على مرمى البصر، هذه أشياء قد

تدهشني أو تصدمني، لكن بالطريقة نفسها التي قد يصدمني أو يدهشني، مثلاً، الصّعوبة المتناهية في أن يرى المرء قفاه أو الوجود غير القابل للتّبرير للجيوب (الجَبْهِية أو الفكّية). في الرّيف، لا شيء يصدمني ؛ وللمجاملة، قد أقول إنّ كلّ شيء يدهشني ؛ في الواقع، كلّ شيء يكاد يجعلني لا مكترثاً. تعلّمت كثيراً من الأشياء في المدرسة وما زلت أعرف أن مدن متز وتُول، وفِردان كانت تشكّل الأسقفيات الثّلاث، وأنّ دلتا تساوي ب2 ناقص 4ا ج، وأنّ حمض زائد قاعدة يعطي ملح زائد ماء، لكنّني لم أتعلّم شيئاً عن الرّيف، أو أنّني نسيت جميع ما علّموني. حصل لي أنْ أقرأ في كتب أنّ الأرياف يسكنها الفلاّحون، وأنّ الفلاّحين يستيقظون وينامون مع الشّمس، وأنّ عملهم هو، من بين أشياء أخرى، أنْ يكلّسوا، أو يجَمْعلوا، أو يُنَاوِبوا، أو يُبَدِّلوا، أو يَفْلِنوا، أو يَمْشِطوا، أو يَكْرَبوا، أو يُنَقّوا، أو يعْزقوا، أو يدرسوا. إنّ العمليات التي تغطّيها هذه الأفعال هي بالنّسبة لي أشدّ غرائبية من تلك التي تحكم، مثلاً، إصلاح مرجل مزدوج للتّدفئة المركزيّة، وهو ميدان لست مع ذلك متضلّعاً فيه على الإطلاق.

هناك، طبعاً، الحقول الكبيرة الصّفراء التي تشقّها آلات برّاقة، والغابات الصّغيرة، والمروج المغروسة بالبرسيم، والكروم على مدى البصر. لكنّي لا أعرف شيئاً عن هذه الفضاءات، إنّها بالنّسبة لي متعذّر سلوكها. الأشياء الوحيدة التي يمكنني معرفتها، هي الأكياس الصّغيرة لڤلموران أو تريفّو، والمزارع المُعَدّلة حيث نَيْر الأبقار قد صار معلاقاً، وحيث مكاييل الحبوب قد صارت سلال مهملات (أمتلك واحداً، أحرص عليه كثيراً)، والمقالات المستدِرّة للشفقة على تدجين العجول الصّغيرة والحنين إلى حَبّ الملوك المأكول على الشّجرة.

2

اليوتوبيا القروية

بدءاً، كنتَ ستكون في المدرسة مع ساعي البريد.

كنت ستعرف أنّ عسل المعلّم أفضل من عسل رئيس محطّة القطار (لا، لن يكون بعد رئيس محطّة، فقط حارس–حاجز : منذ سنين عديدة لم تعد القطارات تتوقّف، ويكون قد حلّ محلّها خطّ حافلات، لكن كان سيظلّ ممرٌّ على مستوى السكّة الحديدية لم يصر بعد آلياً).

كنت ستعرف إنْ كان سينزل المطر بالنّظر إلى شكل السّحب فوق التلّ، وكنت ستعرف المواضع حيث قد لا تزال توجد سرطانات، وكنت ستتذكّر الوقت الذي كان فيه صاحب الكراج يُنْعِلُ الخيول (لتبالغ قليلاً، إلى حدٍّ تكاد تودّ فيه تصديق هذا، لكن دون إفراط...).

طبعاً، كنت ستعرف الجميع وأخبار الجميع. كلّ أربعاء، كان بائع لحم الخنزير من داميير يشغّل منبّه سيارته أمام بيتك ليحمل إليك النّقانق. كلّ اثنين، كانت مدام بليز ستأتي للغسيل.

كنت ستذهب مع الأطفال لتقطف التّوت على طول الطّرق الضيّقة والمتعرّجة ؛ سترافقهم إلى الفطريات ؛ سترسلهم إلى البحث عن الحلزون.

كنت ستكون متنبّهاً لحافلة السّاعة السّابعة. كنت ستحبّ الذهاب للجلوس على مقعد القرية، تحت شجرةالدّردار بنت المائة سنة، تجاه الكنيسة.

كنتَ ستسير عبر الحقول بحذائيْن عاليي الرّقبة وعصاً ذات طرف مصفّح بالحديد بواسطتها تقطع رؤوس النّجيليات البرّية.

كنت ستلعب المانيل مع الشّامبيط.

كنت ستذهب للبحث عن حطبك في غابة البلدة.

كنت ستعرف التعرّف على الطّيور من غنائها.

كنت ستعرف كلّ واحدة من أشجار بستانك.

كنت ستنتظر عودة الفصول.

3

خيار حنينيّ (وزائف)

إمّا أنْ تتجذّر، أو تعثر من جديد أو على جذورك أو تشكلها، أن تنتزع من الفضاء المكان الذي سيكون مكانك، أن تبني، تغرس، تمتلك، ميلمتراً بعد ميلمتر، «بيتك» : أن تكون بأكملك في قريتك، تعرف أنّك واحد من منطقة السّفنول، تجعل من نفسك واحداً من منطقة البوآتفان.

وإمّا أن لا يكون لك سوى ثوبك على ظهرك، أن لا تحتفظ بشيء، تعيش في الفندق وتستبدله كثيراً، وتستبدل المدينة، وتستبدل البلد ؛ أن تتكلّم، وتقرأ على السّواء أربع أو خمس لغات ؛ أن لا تحسّ نفسك في بيتك في أيّ مكان، لكن ترتاح تقريباً لكلّ مكان.

عن الحركة

نعيش في مكان مّا : في بلد، في مدينة، في مدينة من هذا البلد، في شارع من هذا الحيّ، في عمارة من هذا الحيّ، في شقّة من هذه العمارة.

كان ينبغي منذ زمن طويل اكتساب عادة التحرّك، التحرّك بحرّية، دون أنْ يكلّفنا ذلك شيئاً. لكنّنا لم نفعل : ظللنا حيث كنّا ؛ وظلّت الأشياء كما كانت. لم نتساءل لماذا كان ذلك هنا لا في مكان آخر، لماذا كان ذلك هكذا لا بشكل آخر. ثمّ، بالطّبع، فات الأوان، تطبّعنا. أخذنا نعتقد أنّنا أفضل حيث كنّا. وعلى أيّ حال، نحن أفضل هنا مثلما هناك.

عسير علينا أنْ نبدّل، ولو أثاثنا عن مكانه. أن ترحل، تلك مسألة في منتهى المشقّة. نظلّ في الحيّ نفسه، نأسف عليه لو بدّلناه.

لا بدّ من أحداث في منتهى الخطورة كي نقبل بالتحرّك : حروب، مجاعات، أوبئة.

نتأقلم بصعوبة. أولئك الذين وصلوا بضعة أيّام قبلك ينظرون إليك بتعالٍ. تظلّ في ركنك، مع أهل ركنك ؛ تستحضرون في حنين قريتكم الصّغيرة، ونهركم الصّغير، والحقل الكبير من الخردل الذي كان ينكشف بعد مغادرة الطّريق العامّ.

البلد

1

حدود

البلدان مفصول بعضها عن بعض بحدود. وعبور الحدود هو دائماً أمر مؤثِّر : إنّ حدّاً خيالياً، يُجسِّمه حاجز خشبيّ لا يكون فضلاً عن ذلك أبداً حقّاً على الخطّ المفترَض فيه تمثيله، بل بعيداً ببضع عشرات أو مئات من الأمتار من هذه الجانب أو ذاك، يكفي لتغيير كلّ شيء، وحتّى المشهد الطّبيعي نفسه : نفس الهواء، ونفس الأرض، لكنّ الطّريق لم تعد تماماً هي نفسها، وتتغيّر كتابة إشارات المرور، والمخابز لم تعد تشبه تماماً ما كنّا نسمّيه، لحظةً من قبل، مخبزة، لم يعد للخبز الشّكل نفسه، ولم تعد نفس مغلفات السّجائر ملقاة على الأرض...

(أن تلاحظ ما يظلّ متطابقاً : شكل المنازل؟ شكل الحقول؟ الوجوه؟ شعارات «شِلّ» في محطّات البنزين، لافتات «كوكا-كولا» التي تكاد تكون هي نفسها، كما أثبته حديثاً معرض للصّوَر، من أرض النّار بأمريكا الجنوبية حتّى اسكندنافيا ومن اليابان حتّى گرونلندا، قواعد السياقة (مع بعض المغايرات)، انفراج خطّي السكك الحديدية (باستثناء إسبانيا)، إلخ.)

في 1952، بالقدس، حاولت أن أضع قدمي في الأردن، بالعبور تحت الأسلاك الشّائكة ؛ منعني النّاس الذين كانوا يرافقونني : يبدو أنّ المنطقة كانت ملغّمة. ومهما يكن، فليس الأردن هو ما كنت سألمس، بل لاشيء، الـ no man's land [أرض حرام ليست لأيّ إنسان].

في أكتوبر 1970، في هُوف، بإقليم باڤاريا، اكتنفتُ، كما يُقال، بنظرة واحدة شيئاً كان من ألمانيا الغربيّة، وشيئاً كان من ألمانيا الشّرقيّة وشيئاً كان من تشيكوسلوڤاكيا : كان ذلك، والحالة هذه، امتداداً واسعاً باهتاً وكئيباً، وبضعة أحراج صغيرة. كان الأويبرج-الألماني الغربي ــ الذي تُكتَشف منه هذه البانوراما، مطروقاً جداً.

في ماي 1961، غير بعيد عن أطلال سبيطلة، في تونس، في مكان مّا جهة القَصرِين، رأيت الحدود الجزائريّة : مجرّد صفّ من الأسلاك الشّائكة ؛ على بضع مئات من الأمتار، كانت تُرى مزرعةٌ خرابٌ توجد في الجزائر. خطّ موريس، الذي كان لا يزال يعمل، كان يمر ـ فيما قيل لي ـ وراءها تماماً.

الحدود هي خطوط. ملايين البشر هلكوا بسبب هذه الخطوط. آلاف البشر هلكوا لأنّهم لم يتمكّنوا من اجتيازها : كان البقاء على قيد الحياة يمرّ حينئذ باجتياز نهر بسيط، ربوة صغيرة، غابة هادئة : في الجانب الآخر، كانت سويسرا، البلد المحايد، المنطقة الحرّة...

(فيلم *الوهم الكبير* : لم يكونوا يطلقون النّار على السّجناء الفارّين منذ اللّحظة التي يجتازون فيها الحدود...)

تقاتل النّاس من أجل قطع صغيرة جداً من الفضاء، أطراف من ربوة، بضعة أمتار من شاطئ بحر، قمم صخريّة، منعطف شارع. بالنّسبة لملايين البشر، الموت جاء من اختلاف ضئيل في المستوى بين نقطتين متباعدتين بأقلّ من مائة متر : كان القتال يدوم أسابيع للاستيلاء على المرتفع 532 أو استعادته.

(أحد الجنرالات القادة العامّين في الجيش الفرنسي خلال حرب 14-18 كان يُسمّى الجنرال *Nivelle* [يقيس الارتفاعات أو يسوّيها]...).

2

بلادي

التّراب الوطني (الوطن الأمّ ـ بالألمانيّة Vaterland [الوطن الأب] ـ، الأمّة، البلد، فرنسا، المُسدّس الشّكل) هو دولة من أوروبا الغربيّة يطابق الجزء الأعظم من غاليا على هذا الجانب من جبال الألب. يقع بين 42 درجة و20 دقيقة من خط العرض الشمالي وبين 7 درجات و11 دقيقة من خط الطّول الغربي و5 درجات و10 دقائق من خطّ الطّول الشّرقي. مساحته 576 528 كيلومتراً مربّعاً.

على طول حوالي 640 2 كيلومتر، يحدّ هذا التّرابَ فضاءٌ بحريٌّ يشكّل «المياه الإقليمية» الفرنسيّة.

فوق التّراب الوطني، على مجموع مساحته، يوجد «فضاء جوّي».

الدّفاع عن هذه الفضاءات الثّلاثة الأرضيّة، والبحرية والجوّية ووحدتها وأمنها هي موضوع انشغالات دائمة للسّلطات العموميّة.

لا أعتقد أنّ لديّ شيئاً خاصّاً، أو فضائياً، أضيفه فيما يتعلّق ببلادي.

أوروبا

أحد أجزاء العالم الخمسة.

القارة القديمة

أوروبا، وآسيا، وإفريقيا

القارة الجديدة

ها، يا فتيان، لقد أكتُشِفنا !

(هنديّ أحمر، وهو يلمح كريستوف كولومب)

العالم

العالم كبير.

طائرات تشقّه في كلّ اتّجاه، في كلّ وقت.

أنْ تسافر.

يمكن الالتزام باتّباع خطّ عرض معيَّن (جول ڤيرن، ***أطفال العمّ گرانت***)، أو جَوْبُ الولايات المتّحدة الأمريكية باتباع الترتيب الأبجدي (جول ڤيرن، ***وصيّة شخص غريب الأطوار***) أو بربط العبور من دولة إلى أخرى بوجود مدينتين سَمِيَّتَيْن (ميشال بوتور، ***موبيل***).

دهشة الأسفار وخيبتها. وَهْم أنّك هزمتَ المسافة، أنّك محَوْتَ الزمن.

أنْ تكون بعيداً.

أن ترى في حقيقته شيئاً كان لزمنٍ طويلٍ صورةً في معجم قديم : نبع ماء حارّ متدفّق، شلاّل، خليج نابولي، المكان الذي كان يقف فيه گاڤريلو پرنتشپ حينما أطلق النّار على الأرشيدوق فرانسوا فردينان وليّ عهد النّمسا والدّوقة صوفيا دي هوهنبرگ، في منعطف شارع فرانسوا جوزيف والرّصيف أپيل، في سراييڤو، تماماً تجاه خمّارة الأخوين سيميتش، يوم 28 يونيه 1914، على السّاعة الحادية عشرة والرّبع.

أو، بالأحرى، أن تشاهد، بعيداً عن مكانه الأصليّ المفترَض، شيئاً نهاية في القبح، مثلاً علبة من الصَّدف تحمل «ذكرى دينارد» في شاليه بالغابة السّوداء، أو نهاية في الابتذال، مثل معلاق عليه سمة «فندق سان-ڤانسان، كوميرسي » في bed and breakfast [فندق مبيت وإفطار] بمدينة إنڤرنسّ، أو نهاية في عدم توقّع وجوده، مثل الـ Répertoire archéologique du Département du Tarn [الفهرس الأثري لمقاطعة التّارن] الذي حرّره السيّد هـ. كْرُوزْ، باريس، 1865، كتاب بقطع الرّبع، 123 ص.، بصالون بنسيون عائلي بمدينة رگنسبرگ (المعروفة أكثر في فرنسا تحت اسم راتسبونّ).

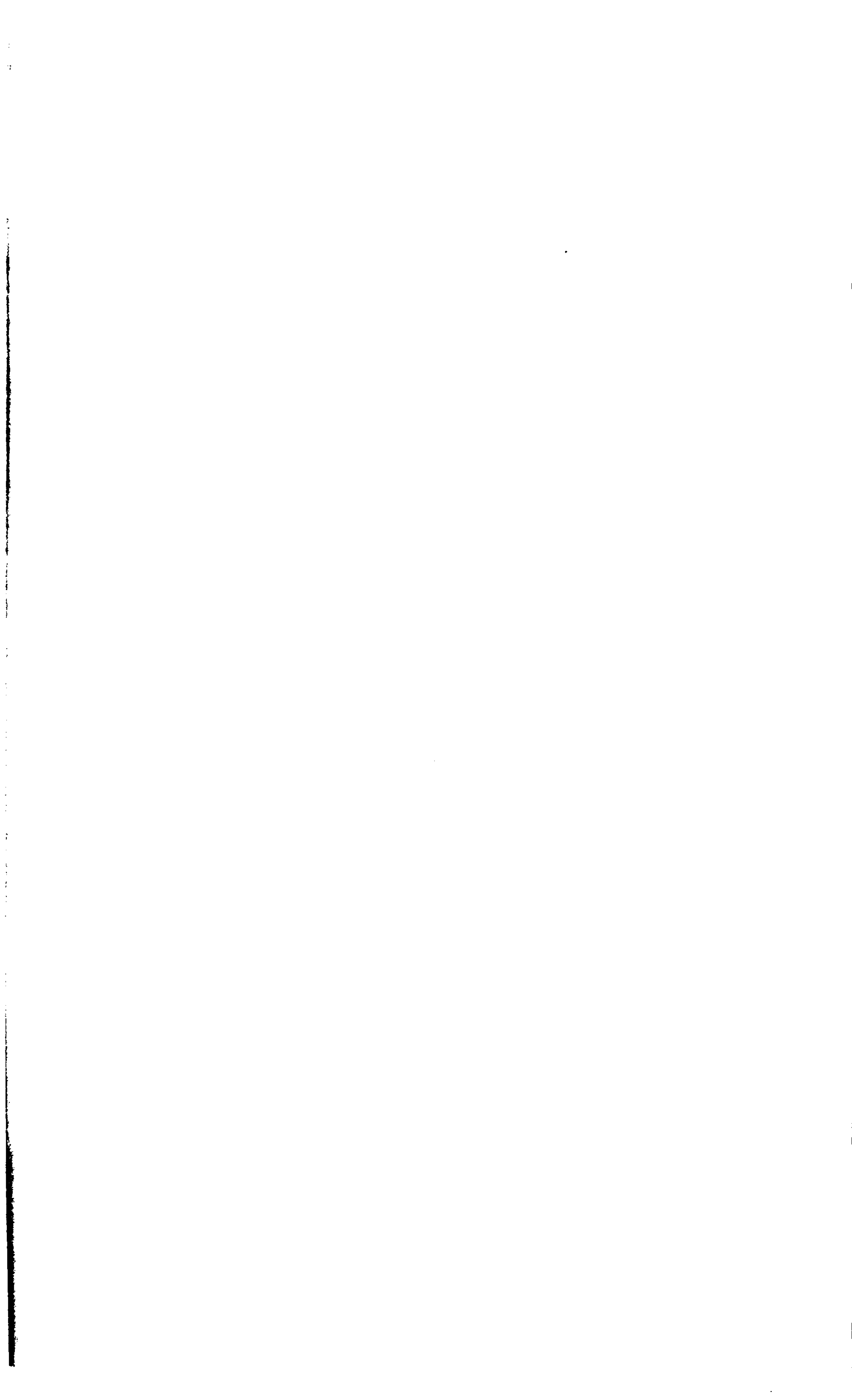
أنْ ترى كلّ الذي حلمت دائماً أنْ تراه. لكن ما الذي حلمنا دائماً أنْ نراه؟ الأهرام الكبرى؟ لوحة الصّورة الشّخصيّة لملانكثون التي رسمها كراناخ؟ ضريح ماركس؟ ضريح فرويد؟ بخارى وسمرقند؟ القبّعة التي كانت ترتديها كاثرين هيبرن في فيلم ***سيلفيا سكارلت***؟

(ذات يوم، وأنا ذاهب من فورباك إلى متز، حِدْتُ عن طريقي لأشاهد، في سان-جان-روورباك، مكان ولادة الجنرال إيْلِي.)

أو، بالأحرى، اكتشاف ما لم نكن رأيناه أبداً، ما لم نكن نتوقّعه، ما لم نكن نتخيّله. لكن كيف الإتيان بأمثلة : ليس ذلك ما كان، على مرّ العصور، قد عُدَّ في جدول مفاجآت هذا العالم أو عجائبه ؛ ليس العظيم، ولا المُدهش ؛ بل ليس بالضّرورة حتّى الغريب : سيكون ذلك بالأحرى، وعلى النّقيض، المألوفَ المستَعاد، الفضاء الوَدُود...

ماذا يمكن أنْ نعرف من العالم؟ من مولدنا حتّى موتنا، أيّ مقدار من الفضاء يمكن لنظرنا أن يأمل في استيعابه؟ كم سنتمتراً مربّعاً من كوكب الأرض ستكون قد مسّته نعالنا؟

أنْ تذرع العالم، تشقّه في كلّ اتّجاه، فلن يكون ذلك أبداً سوى أنّك تعرف منه بضعة آرات، بضعة فدادين : غزوات ضئيلة في آثار لا متجسّدة، رعشات المغامرة، مقاصد لا متحقّقَة متجسّدةٌ في ضباب معسول ستظلّ لنا بعض تفاصيلها في الذّاكرة : ما وراء تلك المحطّات وتلك الطّرق، والمدارج المتألّقة للمطارات، وتلك الشرائط الضيّقة من الأرض التي يضيئها للحظة وجيزة قطارُ ليْلٍ مندفعٌ بأقصى سرعته، ما وراء البانورامات المنتَظَرَة زمناً أطول ممّا ينبغي والمكتشفة بعد فوات الأوان، وتكدّسات الأحجار وتكدّسات أعمال الفنّ، سيكون ربّما ثلاثة أطفال يجرون على طريق بيضاء تماماً، أو منزل صغير عند الخروج من مدينة أفينيون، بباب من الخشب المُشبّك مدهون قديماً بالأخضر، الصورة المقتطعة بشكل خيال الظلّ لأشجار على قمّة ربوة في نواحي ساربّروك، أربعة أشخاص مفرطي السّمنة يصخبون مرحاً على رصيف مقهى بضواحي نابولي، شارع بريُونّ الرّئيسي، بمنطقة الأور، يومين قبل عيد الميلاد، حوالي السّادسة مساء، طراوة ممرّ مسقوف في سوق صفاقس، سدٌّ ضئيل على عَرْض بحيرة اسكتلندية، طريق متعرّجة قرب كورفول-لورگيو... ومعها، عنيدٌ ومباشر وملموس، الشّعور بمحسوسيّة العالم : شيءْ واضح، أقرب إلينا : العالم، لا بوصفه مساراً ينبغي تكراره باستمرار، لا سعياً بدون نهاية، تحدٍّ ينبغي قبوله باستمرار، لا بوصفه التعلّة الوحيدة لتراكم مُوئس، لا وهماً بانتصار، بل بوصفه إعادةَ صِلَة بمعنىً، إدراكاً لكتابة أرضيّة، ***لجغرافيّة*** نسينا أنّنا نحن مؤلّفوها.



الفضاء

... بحيث أنّ العالم والفضاء يبدوان كأنّهما مرآة بعضهما البعض، كلاهما دقيق الزخرفة بهيروغليفات وإديوگرامات، وكلّ واحد منهما يمكن أنْ يكون أو لا يكون علامة : تجمّدٌ جيريّ على البازلت، ذروة ترفعها الرّيح على رمل الصّحراء المتجلّط، ترتيب العيون على ريشات الطّاووس (كانت الحياة وسط العلامات قد أفضت، بتؤدة، إلى أنْ تريَ بمثابة علامات الأشياءَ اللاّتحصى التي بدءاً كانت توجد هناك دون أنْ تشير إلى شيء آخر غير حضورها ذاته، فحوّلتها إلى علامات لذاتها، وأضَافتْها إلى سلسلة العلامات التي عملها عن قصد مَنْ كان يريد أنْ يعمل علامة)، حُزوز النّار على جدار الصّخر النّضيديِ، الأربعمائة والسّبعة والعشرون تخديداً ــ المنحرفة قليلاً ــ على إفريز جَبْهِيّة ضريحٍ، متوالية حُزوز على شاشة أثناء عاصفة مغناطيسية (كانت سلاسل العلامات تتكاثر في سلسلة علامات العلامات، علامات مُكرَّرة عدداً لا يُحصى من المرّات، دائماً متساوية، ودائماً بشكل مّا مختلفة، لأنّه إلى العلامة المعمولة عن قصد كانت تنضاف العلامة الواقعة هناك مصادفة)، السّاق المُحَبَّرة بشكل رديءلحرف R التي كانت في نسخة من صحيفة مسائيّة تتلاقى مع قشّة لِيفيّة في الورق، خدْشٌ من بين ثمانمائة ألف على الجدار المُقَيّر بين حوضيْن للسّفن في ميناء ملبورن، مُنحنى إحصاء، ضربة فرامل على الأسفلت، كروموزوم.

إيطالو كلفينو
(كوسميكوميكس)

نستخدم أعيننا لننظر. مجال رؤيتنا يكشف لنا فضاءً محدوداً : شيء مستدير بشكل مبهم، ينتهي سريعاً جداً يساراً ويميناً، ولا يهبط ولا يصعد عالياً كثيراً. نستطيع، بنظرة حَوْلاء، أنْ ننظر إلى طرف أنفنا ؛ وبرفع عينينا، نرى أنّه يوجد عُلوّ، وبخفض عينينا، نرى أنّه يوجد سُفْلٌ ؛ وبإدارتنا لرأسنا في اتّجاه، ثمّ في اتّجاه آخر، لا نتمكّن حتّى من رؤية كاملة لكلّ ما يحيط بنا ؛ لابدّ من الاستدارة بالجسد لنرى تماماً ما كان في الوراء.

نَظَرُنا يجوب الفضاء ويوحي لنا بوهم النّتوء والمسافة. هكذا نبني الفضاء : بأعلى وأسفل، يسار ويمين، خلْف وأمام، قريب وبعيد.

عندما لا يحُدّ شيءٌ نظرنا، يمتدّ نظرنا بعيداً جداً. لكنّه إنْ لم يصادف شيئاً، لا يرى شيئاً ؛ إنّه لا يرى إلاّ ما يصادفه : الفضاء، هو ما يُوقِفُ النّظر، ما تصطدم به الرّؤية : العائق : آجُرّ، زاوية، نقطة استهراب : الفضاء، هو حين تكون زاوية، حين يكون توقّف، حين يكون لا بدّ من الالتفاف كي تنطلق الحركة من جديد. لا هلاميّة للفضاء ؛ إنّ له حدوداً، فهو لا ينطلق في كلّ الاتجاهات، وهو يقوم بكلّ ما ينبغي القيام به كي يتلاقى خطّا سكّة الحديد بكثير قبل اللاّمتناهي.

عن الخطوط المستقيمة

"هنا كنت قد عملت فصلاً عن الخطوط المنحنيّة، من أجل البرهنة على امتياز الخطوط المستقيمة...

خطّ مستقيم! السّبيل حيث يجب أن يمشي المسيحيون الحقيقيون، كما يقول آباء الكنيسة.

شعار الاستقامة الأخلاقيّة، يقول شيشرون.

أفضل كلّ الخطوط، يقول غارسو الكرنب.

أقصر خطّ يمكن مدّه من نقطة إلى أخرى، يقول أرخميدس.

لكنّ كاتباً مثلي، ومثل آخرين كثيرين، ليس مهندساً؛ لذا تخلّيتُ عن الخطّ المستقيم.

لورنس ستيرن
(تريسترام شاندي،
الفصل 240)

قياسات

مثل جميع النّاس، كما أظنّ، أحسّ نفسي منجذباً إلى النّقاط الصّفر : تلك المحاور ونقاط المرجعيّة التي انطلاقاً منها يمكن تعيين مواقع ومسافات أيّ شيء من الكون.

- خطّ الاستواء
- خطّ گرينويتش
- مستوى البحر

أو أيضاً تلك الدّائرة، على رحبة كنيسة نوتر-دام (لقد اختفت، للأسف ا حين بناء موقف السيّارات ولا أحد فكّر في إعادتها إلى مكانها) التي انطلاقاً منها كانت تُحْسَبُ في فرنسا كلّ المسافات الطّرقيّة.

لمّا كنت أذهب من تونس إلى صفاقس، كنت أحبّ المرور أمام اللّوح (هو أيضاً اختفى منذئذ) الذي يشير إلى أيّة مسافة كانت تقع طرابلس، وبنغازي، والإسكندريّة والقاهرة.

أحبّ أنْ أعرف أنّ پيير-فرانسوا-أندري ميشان، المولود بمدينة لاون في 1744، وجان-بابتيست-جوزيف دولامبر، المولود بمدينة آميان في 1749، قد ذهبا من مدينة دنكيرك حتّى برشلونة لغاية وحيدة هي التحقّق من الطّول الذي ينبغي أنْ يكون عليه المتر (بل يظهر أنّ ميشان قد غلط في حساباته).

أحبّ أنْ أعرف أنّه في منتصف المسافة بين قريتي فراپون ولاپريل، جماعة ڤيدان، مقاطعة الشّير، توجد لوحة تشير إلى أنّنا نوجد تماماً في وسط فرنسا العاصميّة.

هنا بالذات، في هذه اللّحظة، لن يكون إطلاقاً من المستحيل عليّ تعيين موقعي بالدّرجات، والدّقائق، والثّواني، والعُشر والجزء من المائة من الثّواني : في مكانٍ مّا حوالي الدّرجة 49 من خطّ العرض الشّمالي، ومكان مّا حوالي درجتين و10 دقائق و14 ثانية و4 أعشار من الثّانية شرق خطّ گرينويتش (أو فقط بضعة أجزاء من الثّانية غرب خطّ الزوال بباريس)، وبضع عشرات من الأمتار فوق سطح البحر.

قرأت مؤخّراً أنّ رسالة قد أرسلت بالبريد، في أنكلترا، وليس عليها كعنوان وحيد سوى خطّ طول وخطّ عرض. ومن الواضح أنّ المرسل، إنْ لم يكن جغرافياً، فهو على الأقلّ مَسّاحُ أراضٍ أو موظّف في التّحفيظ العقاري، والمرسل إليه، في الحقيقة، كان يسكن، وحيداً، منزلاً منعزلاً كفايةً كي يكون التعرّف عليه ممكناً. كلّ هذا لم يمنع وصول الرّسالة. وقد نشر الـ Postemaster-General، المعادل البريطاني لوزير البريد والاتّصالات، بلاغاً يعبّر فيه عن تقديره الكبير للعاملين في البريد، لكنّه نبّه إلى أنّه في المستقبل لن تؤخذ مثل هذه العناوين بالاعتبار ؛ والأمر نفسه ينطبق على العناوين المنظومة شعراً : فعمّال البريد لديهم مشاغل أخرى غير فكّ الأحجيات ؛ إنّ الطّريق الذي تسلكه رسالة من نقطة انطلاقها حتّى نقطة وصولها هي محض مسألة رموز : وليس مالارمي، أو لاتيس أو رسم الخرائط سوى عوامل تشويش.

يبدو الفضاء، إمّا أكثر تدجيناً، وإمّا أكثر مسالمة، من الزّمن : نصادف في كلّ مكان ناساً يحملون ساعات، ونادراً جدّاً ناساً يحملون بوصلات. نحن دائماً في حاجة إلى معرفة السّاعة (ومن ذا الذي لا يزال يعرف استنتاجها من موقع الشّمس؟) لكن لا نتساءل أبداً أين نحن. نعتقد أنّنا نعرف ذلك : نحن في البيت، نحن في المكتب، نحن في المترو، نحن في الشّارع.

هذا بديهيّ بالتّأكيد ــ لكن ما الذي ليس بديهيّاً؟ غير أنّه من وقت لآخر، ينبغي للواحد أنْ يُسائل نفسه أين هو : يُحدّد أوضاعه : ليس فقط انشغالاته الذّاتية، وصحّته العزيزة، وطموحاته، ومعتقداته ومبرّرات وجوده، بل موقعه الطپوغرافي وحده، لا نسبةً للمحاور الواردة أعلاه، وإنّما بالأحرى نسبةً لمكانٍ أو لكائن يفكّر فيه، أو يأخذ هكذا بالتّفكير فيه. مثلاً، حين تصعد، بالأنڤاليد، إلى الحافلة التي ستقودك إلى مطار أورلي، أنْ تتخيّل الشّخص الذي ستنتظره وهو يعبر الجوّ متعامداً مع مدينة گرنوبل، أن تحاول، بينما الحافلة تشقّ لها طريقاً صعباً وسط اختناقات السّير في شارع دي مِينْ، أنْ تتصوّر تقدّمها البطيء على خريطة فرنسا، عبور مناطق لان، ولاسون-إي-لوار، ولانييڤر ولوّاري... أو، بطريقة أكثر منهجيّة، أنْ تتساءل، في لحظة محدّدة من النّهار، عن المواقع التي يحتلّها، بالنّسبة إلى بعضهم البعض وبالنّسبة لك، بعض من أصدقائك : إحصاء اختلاف المستويات (أولئك الذين، مثلك، يعيشون في الطّابق الأوّل، وأولئك الذين يعيشون في الخامس، وفي السّادس، إلخ.)، والاتجاهات، أنْ تتخيّل تنقّلاتهم في الفضاء.

قديماً، مثل جميع النّاس فيمـا أظنّ، وعلى واحدة من تلك الأجندات الفصليّة الصّغيرة التي كانت تمنحهـا مكتبة جيبـير، عندما كنّا في الدّخول المدرسي، نذهب لاستبدال الكتاب المدرسي كارپنتيي-فيـاليپ ولي رو-كومباليزيي للسّنة الماضية مقـابل الكارپنتيي-فياليب ولي رو-كومباليزيي للسّنة القادمة، كتبتُ عنواني هكذا :

جورج پيريك

18، شارع لاسومپسيون

السلّم ا

الطّابق الثّالث

الباب الأيمن

باريس الدّائرة السادسة عشرة

السّين

فرنسا

أوروبا

العالم

الكون

أنْ تلعب بالفضاء

أن تلعب بالأعداد الكبرى (العامليّة، متتاليات فيبوناتشي، متواليات هندسيّة) :

المسافة من الأرض إلى القمر : ورقـة من ورق لفٌ السّجائر تكون من الرّهافـة بحيث يلزم 1000 منها للحصول على ملمتر واحد، مطوية على اثنيْن 49 مرّة متتالية ؛

المسافة من الأرض إلى الشّمس : نفسها، مطويّة على اثنين 58 مرّة متتالية ؛

المسافة من بلوتون إلى الشّـمس : دائماً نفس الورقة : بطيّها أربع مرّات إضـافية، يكاد ذلك أن يكون كافياً، لكن بطيّها 5 مرّات إضافيّة، تتجاوز قليلاً 000 000 000 3 من الكيلومترات ؛

المسافة من الأرض إلى ألْفَا القنطورس : 15 طيّة إضافيّة.

أنْ تلعب بالمسافات : أنْ تُهَيِّءَ رحلة تتيح لك أنْ تزور أو تجوب كلّ الأماكن الموجدة على مسافة 314,60 كلم من منزلك ؛

أنْ تنظر على تصاميم، على خرائط عسكريّة الطّريق التي قطعتها.

أنْ تلعب بالمقـاييس : أن تتعوّد من جـديد القيـاس بالأقدام والفـراسخ (ولو كان ذلك فقط من أجل قـراءة مريحة لستندال، أو ديماس أو جول ڤيرن) ؛ أن تحاول أنْ تكوّن، نهـائياً، فكرة دقيقةً عن ما هو مِيلٌ بحريّ (وبـنفس المناسبة، عقدة) ؛ أنْ تتذكّر أنّ *journal* هو وحَـدة سطح : إنّه المساحة التي يمكن لعامل زراعيّ أنْ يحرثها في يوم واحد.

أنْ تلعب بالفضاء :

أنْ تخلق كسوفاً شمسياً برفع خنصرك (كما يفعل ليوپولد بلوم، في رواية ***يوليسز***).

أنْ تؤخذ لك صورة وأنت تدعم برج پيزا...

أنْ تشرع في التعوّد على العيش في حالة انعدام الجاذبية :

أنْ تنسى العـموديات والأفـقيـات : رسوم إيشـر، داخل المركبـات الفضـائيّة في فـيلم ***2001، أوديسيا الفضاء.***

أنْ تتأمّل هاتيْن الفكرتين العبقريتين (والمتكاملتيْن، فضلاً عن ذلك) :

أفكّر كثيراً في كمّية لحم البقر اللاّزمة لصنع حساء ببحيرة جنيف.

بيير ضاك
العظم بالمخّ

الفيلة مرسومة عموماً أصغر من حجمها الطّبيعي، لكنّ برغوثةمرسومة دائماً أكبر.

جوناثان سويفت
أفكار حول شتّى المواضيع

1

البيت المتنقّل للسيّد ريمون روسيل

(مقتطف من مجلّة *Revue du Touring-Club de France*)

إنّ مؤلّف انطباعات من أفريقيا، الذي تشيد بعبقريته عقول متميّزة، قد أنشأ في تصاميمه سيّارة تبلغ 9 أمتار طولاً و2,30 م عرضاً. إنّ هذه السيّارة بيت صغير حقيقيّ. فهي تتضمّن، نتيجة لترتيبات بارعة : صالوناً، وغرفة نوم، ومحترَفاً، وحمّاماً، وحتّى مرقداً صغيراً للعاملين المكوّنين من ثلاثة رجال (سائقان وفرّاش).

الهيكل الذي صنعه لاكوست ذو أناقة عظيمة وتهيئته الدّاخلية طريفة بقدر ما هي بارعة. (...) غرفة النّوم تتحوّل في النّهار إلى مُحتَرَف أو إلى صالون ؛ أمّا القسم الأماميّ (وراء مقعد السّائق)، فيستحيل مساءً إلى غرفة صغيرة حيث يمكن للرّجال الثّلاثة المذكورين آنفاًأن يمكثوا فيها على راحتهم ويغتسلوا،(يوجد مغسل في الهيكل السّاند (...) يسار مقعد السّائق ومقود السياقة).

الزّخرفة الدّاخليّة للبيت المتنقّل للسيّد ريمون روسيل قد وقّعها ميل.

توجد تدفئة كهربائيّة ومدفأة بغاز البنزين. وسخّان الحمّام يشتغل أيضاً بغاز البنزين.

الأثاث قد أُعدّ لتلبية كل الاحتياجات. فهو يشمل حتّى خزنةً فولاذية فيشي.

ويتيح تجهيز ممتاز للاّسلكي استقبال جميع الإذاعات الأوروبية.

هذا الوصف، رغم إيجازه، يسمح برؤية أنّ هذه الفيلا المتنقّلة الحقيقية ــ التي يمكن تكملتها بمطبخ مقطور، تتيح لصاحبها أن يجد ثانية في إطارٍ لم يكد يتقلّص جميع رفاهات البيت المألوف.

القاعدة التي رُكّبَ عليها هذا التّجهيز الباذخ هي قاعدة سَوْرر. في الأرض المستوية، تكون السّرعة العادية 40 كيلومتراً في السّاعة. والمنحدرات الأصعب تُوَاجَه دون خشية بفضل نظام فرملة المحرّك.

يتيح المقود «تدويراً» كبيراً حين الانعطاف، وهي ميزة ذات قيمة كبيرة حين مواجهة تعرّجات الطّرق الجبليّة.

(...) ما أنْ رُكِّبت، حتّى انطلقت النقّالة للقيام برحلة طويلة من 3 000 كيلومتر عبر سويسرا والألزاس. في كلّ مساء كان السيّد روسيل يستبدل أفقاً.

وقد عاد من رحلته بانطباعات لا نظير لها.

2

القدّيس هيرونيموس في غرفة عمله

لوحة أنطونيلّو دا مسّينا (لندن، متحف ناشيونل گاليري)

غرفة العمل هي قطعة أثاث من الخشب موضوع على بلاط كتدرائيّة. يقوم على منصّة تؤدّي إليها ثلاث درجات وتحتوي أساساً على ستّة أدراج محمّلة بالكتب وأشياء مختلفة (خصوصاً عُلَبٌ ومزهريّة)، ومُسطَّحٌ للعمل يحمل جزؤه المستوي كتابيْن، ومحبرة وريشة، والجزء المائل الكتابَ الذي يقرؤه القدّيس. جميع هذه العناصر ثابتة، أي تُشكّل قطعة الأثاث بحصر المعنى، لكن يوجد على المنصّة كرسيٌّ، هو الذي يجلس عليه القدّيس، وصندوق.

خلع القدّيس نعليه ليصعد المنصّة. وضع قبّعة الكاردينال على الصّندوق. يلبس كساء أحمر (لباس الكردينال) ويحمل على رأسه ما يشبه الطّاقية، حمراء كذلك. يجلس مستقيماً جدّاً على كرسيّه، وبعيداً جدّاً عن الكتاب الذي يقرأه. أصابعه مدسوسة داخل الأوراق إمّا كما لو كان فقط يتصفّح الكتاب، وإمّا بالأحرى كما لو كان في حاجة إلى الرّجوع كثيراً إلى أجزاء سالفة من قراءته. في أعلى أحد الرّفوف، تجاه القدّيس وعالياً جدّاً فوقه، كان ينتصب مسيح صغير مصلوب. على جانب من الرّفوف كان مثبتاً مشجبان قائمان أحدهما يحمل ثوباً قد يكون مِنْصَفَةً أو بَطرَشيلاً، لكنّه على الأرجح فوطة.

على مُقَدَّم المنصّة توجد نبْتتان في أصيصيْن إحداهما قد تكون شجرة برتقال مقزّمة، وقطٌّ أنْمَرُ صغير تدلّ هيئته على أنّه في حالة نوم خفيف. فوق شجرة البرتقال، على لوحة

مسطّح العمل، أُلـصقتْ بطاقة تعطي، كما هو الحـال تقريباً دائماً عند أنطونلّـو دا مسّينا، اسم الرسّام وتاريخ إنجاز اللّوحة.

على جانبي غرفة العمل وفوقهـا، يمكن تكوين فكرة عن سائر الكاتدرائيّة. إنّها خالية، باستثناء أسـد على اليمين، وإحدي قوائمـه في الهواء، يبدو متـردّداً في المجيء لإزعاج القدّيس في عمله. تظـهر سبـعة طيور في إطار النّوافـذ العالية الضـيّقة الموجودة في الأعلى. عبـر نوافذ الأسفل، يمكن رؤية منظر خفـيف التّضاريس، وشجرة سرو، وأشجـار زيتون، وقلعة، ونهر مع شخصيْن يُجدّفان وثلاثة صيّادين.

المجموع منظورٌ إليه من فتحة واسعة بشكل قوس قوطيّة على مُتّكَئِها يَتَوَضَّعُ في اعتدادِ طاووس وطير جارح صغير للغاية إلى جانب طست رائع من النّحاس.

ينتظم الفضـاء بأجمعه حول قطعـة الأثاث هذه (وتنتظم قطعة الأثاث بأجمعـها حول الكتاب) : معمـار الكنيسة البارد (عراء بلاطاتها، وعداء أساطيـنها) يلتغي : تكفّ منظوراتها وأُفقياتها عن تحديد المكان الوحيـد لإيمان لا يُوصف ؛ إنّها ما عادت توجد هنا إلاّ لتمنح قطعة الأثاث مقيـاسها، وتسمح لها بـالتّـقييد : وسط اللاّيسْكَنُ، يُعَيِّنُ الأثاث فـضاءً مُدجَّناً تسكنه القطط، والكتب والنّاس في سكينة.

3

الهارب

هكذا نظنّ رؤيةَ جِسْـر مِنْ عَدْوه
جاك روبو

نسيت أصل هذه النّادرة، ولسـت أضمن صدقهـا ولا أنا متأكّـد من صحّة عبـاراتها : لكنّها مع ذلك تبدو لي موضّحة لغرضي على نحوٍ رائع.

تمكّن سـجينٌ فرنسيٌ من الـهرب، في عـزّ اللّيل، من القطار الذي كـان يذهب به إلى ألمانيا. كانت اللّيلة حالكة تماماً. والسّجين يجهل موقعه إطلاقاً. مشى زمناً طويلاً، دون قصد،

أي أمامه في خط مستقيم. ذات لحظة، وصل إلى ضفّة مجرى ماء. دَوَّتْ صفّارة. ثوان بعد ذلك، جاءت أمواج أثارها مرور سفينة لتتكسر على الشطّ. استنتج الهارب من الزّمن الّذي كان يفصل دويّ الصفّارة عن اصطفاق الأمواج عرض النّهر ؛ وإذْ عرف عرضه، فقد تعرّف عليه (كان نهر الرّاين) وإذْ تعرّف عليه، فقد عرف أين كان.

4

التّلاقيات

ما كان بالطّبع لهذا من معنى لو كانت الأمور غير ذلك. كلّ شيء قد دُرِسَ، كلّ شيء قد قُدِّر، لا مجال للخطأ، ولا تُعرَف حالة حيث اكتُشِف خطأ واحد، ولو كان من بضع سنتمترات، أو حتّى من بضع ملمترات.

لكنّني أستشعر دائماً شيئاً يشبه الانبهار حين أفكّر في تلاقي العمّال الفرنسيين والعمّال الإيطاليين وسط نفق جبل سِيني [في جبال الألب].

اللاّيسكَن

اللاّيسكَن : البحر المزبلة، الشّواطئ المحفوفة بالأسلاك الشّائكة، الأرض المجرودة، الأرض المجزرة، أكداس الهياكل، الأنهار المستنقع، المدن النّتنة.

اللاّيسكن : معمار الاحتقار والتبجّح، التّفاخر التّافه للأبراج والعمارات، وآلاف الغرف الضيّقة المكدّسة بعضها فوق بعض، التّعاظم الشّحيح لمراكز الشّركات والأبناك.

اللايسكن : المُنحبِس، الخانق، الضّئيل، البخيل، المُضيِّق، المحسوب بأقصى دقّة.

اللايسكن : المُزرَّب، المحظور، المحبوس في قفص، المُرتَجُ، الجدران المُشَوَّكَة بشقوف الزّجاجات، عدسات الأبواب، التّصفيحات.

اللايسكن : مدن الصّفيح، مدن الرّيح.

العدائي، الرّمادي، الفاقد للشّخصيّة، الدّميم، دهاليز المترو، الحمّامات، الحظائر، مواقف السيّارات، مراكز الفرْز، الشّبابيك، غرف الفنادق.

المصانع، الثّكنات، السّجون، الملاجئ، المآوي، الثّانويات، محاكم الجنايات، ساحات المدارس.

فضاء المِلكيّة الفرديّة الشّحيح، العُلّيات المُرتَّبة، الگارسونيرات الفاخرة، الاستديوهات الرّائقة في عشٍّ من الخضرة، المنازل الوقتيّة الأنيقة، غرف الاستقبال الثّلاثيّة، قاعات الجلوس في الهواء الطّلق، المنظر الجميل جداً، تعريض مزدوج للضّوء، أشجار، عوارض، ميزة، مُعَدٌّ ببذخٍ من قِبَلِ مُصمِّم ديكور، شرفة، هاتف، شمس، أفنيّة، مدفأة حقيقية، لُوجيا، مغسلة المطبخ بحوضين (إينوكس)، هدوء، حديقة صغيرة خاصّة، صفقة استثنائيّة.

مطلوبٌ التّصريح بالاسم بعد العاشرة ليلاً.

التّهيئة :

39533/43/ك ا م/ج — 6 نوفمبر 1943

الموضوع : جمع النّباتات المُعَدّة لتزيين فُرْنَي تحريق الجثث I وII لمعسكر الاعتقال بشريط من الخضرة.

المرجع : محادثة بين إس إس-أوبرشتورمبانّفوهرر هوسّ، قائد المعسكر، وشتورمبانّفوهرر بيشوف.

إلى إس. إس. شتورمبانّفوهرر سيزار، رئيس المشروعات الزّراعيّة بمعسكر الاعتقال أوشفيتز (سيليزيا العليا).

طبقاً لمرسوم من إس إس-أوبرشتورمبانّفوهرر هوسّ، قائد المعسكر، سيُزوَّد فُرنا تحريق الجثث I وII لمعسكر الاعتقال بشريط من الخضرة يستخدم حدّاً طبيعياً للمعسكر.

هذه لائحة النّباتات التي ينبغي أخذها من محمياتنا الغابويّة :

200 شجرة ذات أوراق ارتفاعها من ثلاثة إلى خمسة أمتار ؛ 100 من فسائل أشجار ذات أوراق ارتفاعها من متر ونصف إلى أربعة أمتار ؛ وأخيراً، 1 000 شجيْرة للتّلبيس ارتفاعها من متر إلى متريْن، والجميع يؤخذ من احتياطيات مُستنبتاتنا.

مطلوبٌ منكم أن تضعوا رهن إشارتنا هذه العُدّة من النّباتات.

رئيس الإدارة المركزيّة للبناء لڤافن - إس إس والشّرطة بأوشفيتز :

توقيع : إس إس-أوبرشتورمفوهرر

(استشهد بها داڤيد روسّي، *المهرّج لا يضحك*، 1948)

الفضاء (تتمّة ونهاية)

أحبُّ أنْ توجد أماكن مستقرّة، ساكنة، لا تُمَسّ، لا تُلْمَس وتكاد يتعذّر لمسها، ثابتة، متجذّرة ؛ أماكن تكون مرجعيّات، نقاط انطلاق، مصادر :

بلدي مسقط رأسي، مهد أسرتي، البيت حيث سأكون قد وُلِدْتُ، الشّجرة التي سأكون قد رأيتها تكبر (التي سيكون أبي قد غرسها يوم مولدي)، عُلّيّةُ طفولتي العامرةُ بذكرياتٍ بِكْرٍ...

مثل هذه الأماكن لا توجد، ولأنّها لا توجد يستحيل الفضاء سؤالاً، يكفّ أنْ يكون بديهياً، يكُفُّ أنْ يكون مندمجاً، يكفّ أنْ يكون ممتَلَكاً. الفضاءُ شَكٌّ : لا بدّ لي باستمرار من وَسْمِهِ، وتعيينه ؛ أبداً ليس لي، أبداً لا يُعْطَاني، لا بدّ لي من غزوه.

فضاءاتي هَشّةٌ : الزّمن سيستنفدها، سيدمّرها : لا شيء سيشبه بعْدُ ما كان، ذكرياتي ستخونني، النّسيان سيتسرّب إلى ذاكرتي، سأنظر دون التعرّف عليها إلى بعض الصّوَر المُصْفَرّة ذات الحوافّ المنكسرة تماماً. لن يعود بعدُ مكتوباً بحروف من الخزف الأبيض مُلصقة بشكل قوس دائرة على مرآة المقهى الصّغير بشارع كوكيليير : «*هنا يمكن مراجعة دليل بوتّان*» و«*أكلة خفيفة في كلّ الأوقات*».

يذوب الفضاء مثلما يَنْسَرِبُ الرّمل بين الأصابع. يجرفه الزّمن ولا يُبْقِي لي منه سوى بقايا شائهة :

أنْ تَكْتُبَ : أنْ تحاول بتدقيق متناهٍ الاحتفاظ بشيء، أنْ تُبْقِيَ شيئاً على قيد الحياة : أنْ تنتزع بعض البقايا الدقيقة من الخواء الذي يتقعّر، أن تترك، في مكان مّا، أخدوداً، أثراً، وَسْماً أو بعض علامات.

باريس

1974–1973

ملحق

جورج پيريك

جان-لوك جولي

جورج پيريك (1936-1982)، الذي كان يُعتبر وهو على قيد الحياة واحداً من أفذاذ ممثّلي الطّليعة الأدبيّة الفرنسيّة، عرف بعد وفاته شهرة متعاظمة كثيراً ما يبدو أنّها تقارب الأسطورة لضخامة تصادياتها في كلّ المجالات، من الأدب حتّى اللّسانيات بالطّبع، لكن كذلك من التّاريخ حتّى القانون والتّنجيم مروراً بمظاهر مختلفة للحياة اليوميّة حيث لا مدخل للأدب عادة. وهكذا لم يكتف جورج پيريك بأن يكون في الصّفوف الأولى من الأدب الفرنسي لهذه العقود الأخيرة، وإنّما كان كذلك على الأرجح المؤلّف الفرنسيّ الوحيد في نهاية القرن العشرين الذي حاز على اعتراف عالمي واسع، يشهد على ذلك ترجمات أعماله والدّراسات حولها ؛ الوحيد أيضاً، وإنْ كان الإنجاز هنا أقرب إلى النّادرة منه إلى الأدب، الذي دخل اسمه إلى *Guiness Book of records* [كتاب گينيس للأرقام القياسية] باعتباره مبدع أطول معكوس مكتوب على الإطلاق (ملفوظ يمكن أنْ يُقرأ طرداً وعكساً بنفس المعنى) ورواية بأكملها، *La Disparition* [الاختفاء]، حيث الحرف الفرنسيّ الأكثر وروداً في اللّغة الفرنسيّة، حرف «e»، لم يرد ولو مرّة واحدة ؛ وأخيراً، كمثال أخير من بين أمثلة عديدة أخرى لعملية « الأسْطَرَة » المتسارعة هذه، هو الوحيد الذي أعطى اسمه لكوكب صغير، هو الكويكب 2817 (U 1982) المكتشَف سنة 1984!

لكن ليس هذا هو الأهمّ، إذ أنّه ليس فحسب مؤلف ما يقارب إثني عشر كتاباً جميعها بصيغة أو أخرى، قد جدّدت الأدب، بل هو أيضاً صاحب عمل أدبيّ حيث الحداثة تمتح كما من منبع، وحيث تستجلي نفسها وتكتشف وتتعرّف ذاتها. إنّها خصيصة مدهشة لهذا الرّجل وكتبه : لا تزال تُكتشَف أهمّيتهما لأنّه لم تستنفد بعدُ جِدتّهما.

غير أنّ هذه الأعمال ليست أعمال رجل مطمئن، بل على العكس من ذلك هي لإنسان قَلِقٍ وجودُه وعصرُه مشروخان في مواقع عديدة. ومع ذلك ليست تلك الأعمال متشائمة أو يائسة فهي تشهد على نهم هائل للأشكال وإبداعية كتابيّة تبدو غير محدودة كما لو أنّ ما كان قد تحطّم في الحياة يحاول أنْ يترمّم في المكتوب.

تبدأ حياة جورج پيريك كمأساة أصداؤها ستملأ نصوصه بطريقة واعية أو لاواعية إذ سيفقد والديه باكراً جداً : يموت والده في الأيّام الأولى للمعارك القصيرة في بداية الحرب العالمية الثّانية ووالدته تموت معتقلة في معسكر أوشڤيتز النّازي. صار يتيماً في صباه (ستقوم بتبنّيه وتربيته عمّته)، وهذا «النّقص الوجودي» البدئي يفسّر كثيراً من مظاهر أعماله الأدبيّة المُستقبَلة، بدءاً بالمشروع السّيرذاتي لإعادة تشكيل لا حياته فحسب ولكن أيضاً إعادة تشكيل أسرته ومن ورائها، الأسرة الموسّعة للجماعة بل حتّى، رمزياً، الإنسانية بأكملها عبر مشروعات حيث ستحاول أنْ تَتَبنّيَ استيعابات وكُلّيات. بل قد صرّح پيريك إنّه قد أدرك، في لحظة معيّنة من مساره الأدبي، أنّ كلّ كتبه، في نهاية الأمر، كانت سيرة ذاتية حتّى الأكثر «شكلية»، والأبعد في الظّاهر عن الاعتراف الحميم، لأنّها جميعها موسومة بإرادة منح معنى جديد لحياة سحقها التّاريخ. وهكذا فإنْ كان حرف «e» غائباً من رواية ***الاختفاء***، فليس ذلك مجرّد ميل إلى التّحدّيات الأدبية، وإنّما، بشكل أعمق، لأنّ «e» مجانس في اللّفظ لـ«eux» [هُمْ]، أي والدي پيريك، المختفييْن هما أيضاً، مثل الحرف من الرواية. إنّ هذا النصّ يشير إذن، بعدم استعماله «e»، استغوارياً إلى غياب لا يُطاق. لكنّه، في تلازم، يعوّض ذلك النّقص الوجودي بإنجاز شكلي ويُعارض المُجرَّدَ من حرف (نصٌّ ذو قيْد مكتوب دون بعض الحروف) بكلّية تكاد تكون أكيدة : كلّية مجموع الصيغ الصّرفية في اللّغة الفرنسيّة التي لا تتضمّن حرف «e».

إنّ العمل الأدبي لجورج پيريك كثيراً ما حيّر الشرّاح والنقّاد بتنوّعه. فبعد بدايات صعبة (أربعة نصوص أو خمسة رفضها النّاشرون)، عرفت أوّل رواية منشورة لپيريك، ***Les Choses*** [الأشياء] نجاحاً عظيماً جداً تُوّج بجائزة Renaudot، إحدي أعظم الجوائز الأدبيّة الفرنسيّة. يتكشّف پيريك في تلك الرّواية محلّلاً بالغ الرّهافة للمجتمع الاستهلاكي الآخذ في النّشوء آنذاك بفرنسا، مستفيداً من معارفه المهنية بوصفه باحثاً لمؤسّسات استطلاع الرّأي ومتبنّياً وجهة نظر تتسمّ بالميل إلى اليسار ؛ لكنّ پيريك لا يمكن اختزاله إلى صفة كاتب «سوسيولوجي» التي كثيراً ما ألصقت به بسبب هذه الرّواية ؛ ولا أيضاً إلى صفة تابع من أتباع

الرّواية الجديدة التي اشتهر بها في بداياته بسبب انتحائه الكتابة الوصفيّة. إنّ رواية **الأشياء** تمثّل الولوج إلى الأدب لكاتب مهتمّ قبل كلّ شيء بأن يجعل من كتابته أداة ناجعة لتحليل الواقع وقادرة على مضاهاته في التّعبير عن التّعقّد. پيريك مثلاً ينشئ فيها أسلوبية اللاّئحة والتّراكم، التي هي كذلك، ستذيع صيته كاتباً تجريبياً. على أنّه إلى جانب هذه البويطيقا الجنينية، فإنّ الأشياء تظلّ حقّاً «تاريخ سنوات السّتّينات» الذي يشيرإليه عنوانها الفرعي، سنواتٌ تعبّر هذه الرّواية عن مناخها وروحها، إن لم نقل واقعها وربّما حتّى حقيقتها، مع حسٍّ حادٍّ بالتّفصيل كما بالتّركيب، بالتّاريخ كما بالأسطورة، وبالجدّ كما بالهزل. إنّها شهادة ثمينة على الطّريقة التي يمكن بها لكاتب استمداد التّاريخ، والتّعبير عنه واستعادته بقوّة وإيحاء لا تمتلكهما دائماً التّحليلات والدّراسات المتخصّصة.

بعد هذه الرّواية الأولى التي حازت الاعتراف، كتب پيريك عملين كثيراً ما يعتبرهما النقّاد ثانويين : *Quel petit vélo à guidon chromé au fond de la cour ?* [أيّ درّاجة صغيرة ذات مقود مكروم في مؤخّر الفناء؟]، وهي رواية قصيرة متوثّبة الخيال يسرد فيها پيريك، متلاعباً بلهجة جماعة الطّلبة في تلك الفترة كما بالصّوَر البلاغية التي أحيا البنيويون آنئذ موضتها من جديد، المغامرات المأساوية-الهزلية لجماعة من الرّافضين للتّجنيد في حرب الجزائر و*Un Homme qui dort* [رجلٌ ينام] (1967)، وهو محكّيٌ حياةٍ منذورة للاّمبالاة والاكتئاب سيجعل منه پيريك أيضاً شريطاً سينمائياً. وفي 1969 تظهر رواية **الاختفاء**، الرّواية المجرّد ة من حرف التي تحدّثنا عنها آنفاً والتي كانت حلولها الشّكلية، بحسب أقوال پيريك نفسه، قد جعلته يخرج من هذه الفترة من الأزمة الشّخصيّة والأدبيّة على السّواء. ثمّ يظهر بعد ذلك نصّان لانمطيان : *La Boutique obscure* [الدكّان المعتم] في 1973، وهو أشبه بمختارات من الأحلام عاشها وكتبها پيريك في الآن ذاته و*Espèces d'espaces* [فصائل الفضاءات] في 1974، الذي تصدر اليوم ترجمته العربيّة، وصحيح أنّه عمل كُتب تحت الطّلب، لكنّه بالأساس تفكير أصيل بقدر ما هو لانمطيّ في الفضاءات، من الأصغر، صفحة الكاتب، حتّى الأكبر، أي العالم، والذي يفضي إلى بويطيقا آثار البقايا تقارب في جوهرها عَمَلَ الحدّاد. وعلى الخصوص ظهر أخيراً، في 1975، عملٌ لپيريك كان قد شرع فيه منذ سنوات وانقطع عنه عدّة مرّات : يتعلّق الأمر بـ *W ou le souvenir d'enfance* [W أو ذكرى طفولة]، وهو عمل كذلك لافتٌ للنّظر بجدّته الشّكلية لأنّ تخييلاً يوجد فيه منجدلاً مع سيرة ذاتية والمحكيان المتعاقبان داخلان في تصادٍ فذّ. يعرض التّخييل قصّة يوتوبيا رياضيةهائلة، هي

يوتوبيـا جزيرة W حيث الرّياضة تستأثر بكلّ شيء، عالمٌ نتعرّف فيه بسهولة على التّصوير الرّمزي لكلّ مشروع كلّياني استبدادي، ومنه بالطّبع مشروع النّازية ؛ أمّا القسم السّيرذاتي، فهو قصّة أسرة بيريك التي يباشرها هذا القسم بطريقة أليمة، مثل تحليل نفسيّ بواسطة الأدب.

في 1976، أصدر بيريك ديوان شعر، *Alphabets* [أبجديات]، حيث ممارسته البارعة في الأناكرام [جناس القلب والتّصحيف] تتجلّى بطريقة باهرة ؛ وفي 1978، يصدر *Je me souviens* [أتذكّر]، وهو أشبه بسيرة ذاتية جماعيّة حيث ذكريات فرد تتلاقى مع ذكريات جيلٍ وبنصٍّ سيسهم كثيراً في شعبية بيريك واعتراف الجمهور العريض به (سيكون نص **أتذكّر** مناسبة لعرض مسرحيّ حيث سيتألّق الممثّل سامي فري). لكنّ سنة 1978 هي التي يظهر فيها عمل بيريك العظيم، المتوّج فوراً بجائزة *Médicis*، بعنوان *La Vie mode d'emploi*، نصّ ذو عنوان فرعي «روايات» (بصيغة الجمع) لأنّ بيريك وهو يكتبه يبدو أنّه قد تصدّى لما يشبه تركيباً لكلّ أدب عصره، «روايات» ذات تعقيد خارق حيث كلّ فصل تحكمه قيود متعدّدة (قد عُثِر على تصاميمها وتمّ نشرها)، وعملٌ يطمح فيه الكاتب مضاهاة كلّيات حيّة. من المستحيل طبعاً تلخيص عشرات القصص المتقاطعة والمتشابكة (إلاّ بقول أنّ الرّواية تعرض نفسها سطحياً بوصفها استكشافاً لكلّ غرف عمارة حيث تعيش عائلات عديدة، من غرف الخادمات حتّى الأقباء مروراً بالسلّم، وغرف الطّعام، والمكاتب، والمطابخ وحتّى آليات المصعد، لأنّ كلّ مكان ثريٌّ بالقصص)، وبذلك تصل *La Vie mode d'emploi* إلى ما يشبه التعقّد البيولوجي حيث الكاتب المحروم من الأبوين قد أعاد بقوّة فنّه وحدها بناء عالم يتضمّن كلّ شيء. كلّ شيء...أو بالأحرى تقريباً كلّ شيء، إذْ أنّ بيريك، الذي لا يخفى عليه أنّه لا الاستقصاء ولا الكلّية يكونان سهلي المنال على الكاتب، قد هيّأ موقعاً في النصّ للنّقص وللخطأ : أي، مرّة أخرى للاختفاء. وبتعيينه موقعاً محدّداً للخواء، فإنّه على نحوٍ مّا قد أخضعه ومنعه ربّما من أن يتحوّل إلى ألم.

أصدر بيريك، من 1978 حتّى 1982، تاريخ وفاته، نصوصاً عديدة أخرى : ديوان شعر جديد في 1978 (*La Clôture*)، ومجموع كلمات متقاطعة في 1979 (كان بيريك أيضاً هاوياً كبيراً للكلمات المتقاطعة)، و*Récits d'Ellis Iland* في 1980، هو في الآن ذاته نصٌّ وشريط (أخرجه مع روبير بوبير) حيث بيريك، من خلال الاستكشاف الشّعري لتلك الجزيرة النّيويوركية حيث كان يوجد قديما مركز المراقبة الأمريكية للهجرة، يُكرّم كلَّ منفيي الأرض، ومجلّد أوّل من المسرحيات لن يتلوه للأسف ثانٍ، في 1981 (*Théâtre* I). وستظهر

بعد وفاته : رواية پيريك الأخيرة التي لم يتمّها، *53 jours*، رواية ذات لغز حيث تلعب اللوحة الإشارية الشّهيرة بزاكّورة التي تقول «تمبكتو : 52 يوماً» دوراً تماماً مثل ستندال مؤلّف *La chartreuse de Parme* [دير پارما] (رواية مكتوبة في 52 يوماً كما يقول التّاريخ الأدبي)، وكثرة من المجاميع تضمّ نصوصاً صغيرة متفرّقة بعضها، مثل *Penser / classer* (1985) أو *L'infraordinaire* (1989)، هي نصوص هامّة جدّاً لفهم مشروعه و«فكره» (حتّى وإنْ كان پيريك قد نفى دوماً أن يكون قد أراد عن قصد تشييد عمل أدبي متكامل، رغم تأمّلاته الكثيرة حول وحدة عمله).

إنّ أعمال پيريك المدروسة والمحتفل بها في العالم كلّه تبدو اليوم أعمال معاصر رئيسي لم نكد نشرع اليوم، بعد وفاة مؤلّفها، في تقدير مداها، وحيويتها وخصبها.

معجم

أنطونلّو دا مسّينا (1430-1479) : رسّام إيطالي.

تكس آفـري (1908-1980) : رسّام وسينمائي أمريكي، اشتهر برسومه المتحرّكة، بگس بني مثلاً.

مارسيل پروست (1871-1922) : كاتب وروائي وناقد فرنسيّ، جدّد الكتابة الرّوائية بروايته الضّخمة بحثاً *عن الزّمن الضّائع* ؛ حيث يكتشف قدرة الذّاكرة العفوية، وحلوى المادلين المغموسة في الشّاي تحيي ـ بتذكيرها بمذاق منسي ـ كلّ طفولة السّارد. وكتاب پيريك فصائل الفضاءات موضوع عن قصد في دائرة استلهام پروستية.

ميشال بوطور : كاتب فرنسيّ معاصر، من روّاد «الرّواية الجديدة»، وروايته *موبيل* وصف، على طريقة الرّواية الجديدة، للولايات المتحدة الأمريكية ولإحدي مدنها المسمّاة بهذا الاسم.

بيدكر (1801-1859) : ناشر ألماني، صاحب مجموعة شهيرة من كتب الدّليل السياحي.

التّربيع المضاعف اللاّتيني المتعامد : مسألة رياضية بالغة التّعقيد بنى عليها جورج پيريك شكل روايته *La vie mode d'emploi*، ويوجد عرض لها ولبعض المسائل الرّياضية والهندسيّة الأخرى التي كانت من القيود الشّكلية والمعمارية الملازمة لكتابة پيريك، في كتاب .*Atlas de littérature potentielle*,Gallimard

ريمون روسّـــيل (1877-1933) ك كاتب فرنسيّ، رائد السّريالية وداعية للأدب التّجريبي.

سـاينردام Pieter Saenredam (1597-1665)، رسّام هولندي اشتهر برسم داخل الكنائس.

شاوول ستينبرغ : رسّام أمريكي ساخر معاصر.

الكسندر كالدر (1898-1976)، نحّات أمريكي.

لوقا كراناخ (1515-1586) : رسّام ألماني، وميلانكتون هو اسم مساعد مارتن لوثر إبّان حركة الإصلاح الديني بألمانيا في القرن السّادس عشر.

ريمون كونو (1903-1976) : كاتب فرنسيّ، كان من روّاد مدرسة الأوليبو (محترف الأدب الممكن أو الكامن) المعتمدة أساساً على القيود الشكلية واسكتشاف كلّ ممكنات الأدب واللّغة، وكان جورج پيريك عضواً في هذا المحترف.

لويس كارول (1832-1898) : عالم رياضيات ومنطق، حكايته ***أليس في بلاد العجائب*** تنتقد البنيات المنطقيّة للعقل والحسّ السّليم.

ماگريت (1898-1967) : رسّام بلجيكيّ.

مسألة الفرس في الشّطرنج (Polygraphie du cavalier) : مسألة شهيرة في الشّطرنج، يلزم فيها نقل الفرس ليجوب خانات الرّقعة الأربعة والستّين دون أن يتوقّف أكثر من مرّة واحدة في نفس الخانة.

فهرس



كيف يمكن لفضاء الكتابة أن يستوعب كتابة الفضاء ؟

فضاء الكتابة ليس بأقل تنويعاً وتغايراً وتعالقاً وتحابكاً من الفضاء المعيش اجتماعياً وأسطورياً. الفضاء كتابة على الطّبيعة وعلى جسد الإنسان وعقله، كما الكتابة فضاء يكتسب وجوده من تفضيته وانتظاماته. الإنسان في وجوده التّاريخي يكتب فضاءه الحيوي، مثلما الكتابة على الفراغ الأبيض للصّفحة تكتب فضاءها الرّمزي ؛ فكيف لا تكون الصّفحة المكتوبة فضاءً كما الفضاء صفحة مكتوبة ؟ إنّ حلّ حرف يخدش الفضاء فيخلقه مُغيّراً إيّاه، فتتكاثر الحروف وتنتظم، كما تتعدّد الفضاءات وتتهندم وتتهندس، خالقةً فصيلات وأنواعا وفصائل وأجناساً.

جورج پيريك في هذا الكتاب يرسم دوائر الفضاءات المُنداحة عن الصّفحة البيضاء فيما هو يحاول إبداع نصٍّ متفرّدٍ يتأبّى على التّصنيف.